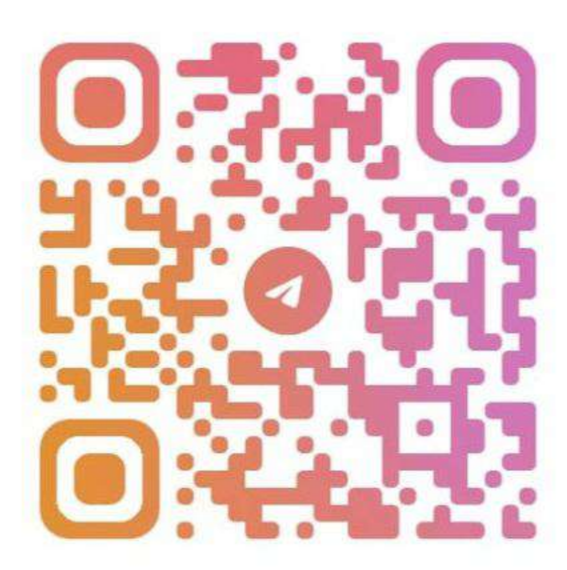
البحث عن السادات

يوسف إدريس





مكتبة سور الازبكية
تليجرام
s://t.me/kotokha



@KOTOKHATAB

البحث عن السادات

تأليف
يوسف إدريس



هنداوي

البحث عن السادات

يوسف إدريس

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٦٥١ ٤

صدر هذا الكتاب عام ١٩٨٤.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

المحتويات

البحث عن الحقيقة

ما هذا الذي حدث؟

وكيف حدث؟

ولماذا حدث؟

أسئلة كان من الصعب تمامًا أن يُجيب عليها الإنسان وسط زوبعة الرمال والتراب، وعُواء القطط والكلاب، وفرقعات مُسدَّسات الأطفال، وقنابل الصوت التي كانت تَحفل بها الساحة، والذي تفجَّر فجأةً في أوائل أبريل الماضي إثر نشر إعلان — مُجرَّد إعلان — عن مقالات سبع ستنشرها لي جريدة القبس الكويتية، وتنقلها عنها بعض جرائد الخليج والأردن؛ فحتى ذلك الوقت كانت الساحة السياسية هادئةً أو شبه هادئة، وكان الشدُّ والجذب يدور حول حتمية «التغيير» وضرورته؛ ذلك الذي تُطالِب به المعارضة، وعدم ضرورة التغيير الفوري وخطورته؛ ذلك الذي تراه السلطة وبالذات قيادة الحزب الوطني الحاكم.

وكأنه كان غريبًا أن تظهر مقالاتي في نفس ذلك الوقت.

فأنا لست طرفًا في اللعبة السياسية الدائرة منذ حادث المِنصَّة حول السادات، أو هكذا بدوت، وأن أطلع فجأةً على القرَّاء برأيٍ خطير في أنور السادات مسألةٌ قيل في تأويلها كل ما يمكن أن يخطر على بال إنسان موتور أو حتى حسن النية، غير أن أحدًا لم يتوقف للحظة ويتساءل عن الحقيقة، ولماذا بدا أني خرجت على الناس فجأةً برأي في السادات، وكأنني قد اتفقت مع الأستاذ هيكل ومع الصحف العربية التي نشرت كتابه ومقالاتي في «مؤامرة» للنَّيل من الرئيس الراحل، معًا وفي وقتٍ واحد.

ولو كنا في ظروفٍ عادية، ولو لم يملأ الصغار والمُسترزِقون الصحفيون من عهد السادات وإلى الآن الجوَّ بالغبار والرمال وقذائف الطين، لَأمكننا جميعًا أن نرى الحقيقة

بنفس البساطة التي تمَّت بها، ولما احتاج أحد جهابذة كُتاب جريدة الأخبار لأن يقول: إن موسكو ضغطت على زر ليكتب هيكل وإدريس وغيرهما ضد الساداتية، في ذلك الوقت بالذات الذي تستعدُّ فيه مصر للاحتفال بعودة سيناء (٢٥ أبريل) وتدور مفاوضات (كامب ديفيدية) أخرى مع لبنان.

وفي الجانب الذي يخصُّني سأُورد هنا ولأول مرةٍ حقيقةَ أفكاري ومشاعري تلك التي انتهت بنشر المقالات السبعة.

والبداية الحقيقية كانت في أوائل يونيو عام ١٩٨٢م، حين اجتاحت جيوش إسرائيل لبنان تضرب وتذبح وتُنكِّل وتحرق وتنسف وتقتل المدنيين والعسكريين، الأطفال والنساء والشيوخ، ويُتوَّج الأمر بمذابح صبرا وشاتيلا في النهاية.

كان غزو لبنان نقطة تحوُّل كبرى في تفكيري.

ذلك أني كنت أعتقد أن الضرر الذي حدث من كامب ديفيد كان قاصرًا إلى ذلك الحين على عزل مصر عن شقيقاتها العربيات، وربط مصر ربطًا مُحكَمًا بالاستراتيجية الأمريكية الإسرائيلية؛ للسيطرة على المنطقة بتحييد أكبر وأهم دولة عربية باستطاعتها التصدي للأطماع الإسرائيلية أو الأمريكية أو المشتركة في المنطقة.

ولكن غزو لبنان أكَّد لي الشعور بأن كامب ديفيد لم تكن إلا مجرد خطوة على الطريق، أو بالأصح البداية الحقيقية لفترة طويلة قادمة، هي فترة السيادة الإسرائيلية بالقوة الغاشمة على المنطقة؛ تلك السيادة المطلوبة والمدعومة والمسنودة تمامًا من الولايات المتحدة الأمريكية.

وتَصادف أني كنت قد انتهيت من قراءة الجزء الأول من مذكرات كيسنجر، وأيضًا مذكرات الرئيس الأمريكي السابق كارتر، وبدأت تُنشَر في خريف عام ٨٢ أيضًا مذكرات محمد إبراهيم كامل وزير الخارجية إبَّان مفاوضات كامب ديفيد.

والحقيقة أني تابعت قراءة تلك المذكرات التي كانت تنشرها جريدة الشرق الأوسط السعودية التي تصدر في لندن، وكنت أُتابع ما يُنشر من فصولها (التي بلغت حواليَ الثلاثين صفحة من صفحات الجريدة) في شغف، وإلى درجةٍ دفعتني لكتابة مقال في نفس الجريدة كان ردًّا على بعض الأقلام التي هاجمت محمد إبراهيم كامل في صحف القاهرة، وعابت عليه نشره لمذكراته كوزير خارجية سابق.

وحين انتهى نشر المذكرات، وبالإضافة إلى ما عَلِق بذاكرتي من مذكرات كيسنجر وكارتر عن نفس الفترة، وجدت أني قد بدأ يتكوَّن لي رأيٌ خطير فيما فعله السادات في

كامب ديفيد، وفيما فعلته كامب ديفيد في السياسة المصرية والعربية. وكما ذكرت، بدأت أكتب هذا الرأي لنفسي كما قلت آنفًا في إحدى مقالاتي السابقة، ثم بدأت أجد أن رأيي هذا يستلزم الرجوع إلى شخصية السادات ودوره في الثورة المصرية وشخصيته والخطة التي بناها كيسنجر، ومُرتكَزها الأساسي تلك الشخصية الساداتية الفريدة في تاريخنا كله.

كتبت الآراء على هيئة خمس مقالات، كان موقفي فيها امتدادًا لما كتبته عشيةَ الغزو الإسرائيلي للبنان باعتبار أنه جزء من الخطة الكبرى المرسومة للمنطقة.

بل إن دافعي الأول لكتابة تلك المقالات لم يكن مجرد «البحث عن السادات»، كان في الحقيقة محاولة للبحث عن الخطة العظمى المرسومة للمنطقة، والتي أدخل السادات نفسه فيها عن إرادة ووعي؛ لا ليستغلها هو لمصلحة مصر، وإنما لكي تستغله هي — أي الخطة — لمصلحة أمريكا وإسرائيل.

وحين تسرَّب خبر كتابتي للمقالات، في حوالَي فبراير ١٩٨٣م إلى الجرائد الكويتية، تلقَّيت عرضًا من جريدة القبس، عن طريق مدير مكتبها في القاهرة، لنشر المقالات في الجريدة المذكورة والحصول على حق نشرها في كل المشرق العربي.

ووافقت.

فمسألة نشرها في مصر كانت غير واردة بالمرة لأسبابٍ كثيرة، لا يخفى على القارئ معظمها، ولكن أهمها في رأيي أن الرأي العام في مصر يكاد يكون مُحاصَرًا، بحيث إن كثيرًا جدًّا مما يهمُّ الرأي العام المصري الوقوف عليه لا يُنشَر في مصر، وإنما يُنشَر أساسًا في الجرائد العربية التي تصدر في لندن وبيروت وباريس، بحيث أصبح الرأي العام المصري يكاد يكون محليًّا مُنكفئًا على نفسه، ومحظور أن يُنشر في جرائده الكبرى الحكومية ما يمكن أن يُعتبر رأيًا علميًّا عميقًا يُناقِش الفترة الساداتية أو حتى الفترة الناصرية. وكل ما يحظى به الرأي العام في مصر هو مجرد اتهامات، سواء للحكم الناصري أو الحكم الساداتي، تهتمُّ الأولى بالاستبداد والحكم بالمخابرات، وتهتمُّ الثانية بكل عيوب ومآسي سياسة الانفتاح والخضوع لأمريكا.

وللآن لا يزال الاقتراب الجادُّ الخطير والتقييم العلمي، وبالضبط كُنه ثورة ٢٣ يوليو، ومسائل كبرى كالعُدوان الثلاثي، أو التدخل في اليمن، أو هزيمة ٦٧، أو ثغرة الدفرسوار، أو حقيقة الدوران للخلف الذي حدث عام ١٩٧١م، وهل كان يمكن أن يكون «تصحيح» أخطاء ثورة ٢٣ يوليو بتطويرها وحقنها بكمٍّ وافر من الديمقراطية السياسية وليس أبدًا النكوص عنها، والعودة القهقرى إلى نظام حكم الأقليات الحزبية أيام الملك، وأيام قبضة محمد محمود الحديدية وديكتاتورية إسماعيل صدقي.

كل تلك المواضيع الكبرى في حياتنا لا تزال لم تُناقَش بعد، وأبدًا ليس من مُنطلَق ترك واقعنا الحالي أو تطلعنا إلى المستقبل، والعودة إلى الماضي نتفحص و«نفلِّي» فيه كاليهودي الذي أفلس، لا، وإنما لكي نُحدِّد حركتنا إلى المستقبل تحديدًا واضحًا وصحيحًا، فلا بد أن نعرف أين نضع أقدامنا الآن. ولكي نعرف موقع أقدامنا الحاضرة فلا بد أن نعرف تاريخ ذلك الموقع وكيف كان وجاء؛ فمثلًا قاعدة رأس بناس تمَّ الاتفاق عليها أيام السادات، ولو كان السادات حيًّا لسرى الاتفاق، ولأصبحت تلك القاعدة قاعدةً أمريكية تستعملها الولايات المتحدة كجزء من استراتيجيتها لردع أي دولة عربية، وليس أبدًا لردع الاتحاد السوفييتي، ولكن الحكومة المصرية رفضت أن تكون هذه القاعدة قاعدةً أمريكية حتى لا تقودنا إلى الدخول في فلك الاستراتيجية الأمريكية، وفقدِ سيادتنا على أرضنا، وتخلِّينا تمامًا أو بالأصح طردنا من معسكر عدم الانحياز باعتبار أننا انحزنا تمامًا للمعسكر الغربي الأمريكي.

هذا الرفض لحكومتنا لم يأتِ من فراغ، وإنما هو رفض بُنِي على أساس التطلع للمستقبل ودراسة الحاضر على هذا الضوء. وقد حتَّمت تلك الدراسة أن نُراجع سياسة السادات تجاه منح أمريكا «تسهيلات»؛ وبالدراسة وجدنا أن بناء الولايات المتحدة للقاعدة سيجعل منها «قاعدة» أمريكية، وهكذا رفضت حكومتنا.

نفس الشيء أتصوَّره يحدث بالنسبة لكل أمور حياتنا؛ فنحن في سعينا مثلًا لتحسين وضعنا مع البلاد العربية، من المُحتَّم أننا سنعود إلى الفترة الساداتية، وبالذات إلى الفترة التي أعقبت حرب أكتوبر المجيدة، والموقف الذي اتخذته كثير من البلاد العربية من اتفاقياتِ فضِّ الاشتباك الأولى والثانية؛ كي نعرف أساس خلافنا مع العرب أو اختلاف العرب معنا؛ ذلك الذي أدَّى إلى القطيعة الكاملة ذات يوم.

أريد أن أقول: لقد اتَّضح الآن أن المسألة ليست مسألة «نبش قبور» أو عودة إلى الماضي، وإنما هي تطلُّع إلى المستقبل بعيونٍ ترى الحاضر بدقة. ولكي تراه بدقة لا بد أن تعرف جذوره، حتى جذوره القريبة؛ تلك التي لم يمضِ عليها سوى أقل من عشر سنوات.

وما كتبت مقالاتي عقب الغزو الإسرائيلي للبنان إلا مُحذِّرًا من «الخطة العظمى» وراء هذا الغزو، ومن مؤامرة تقسيم لبنان إلى دُوَيلات عِرقية ودينية، دُوَيلات تُبرِّر وجود إسرائيل كدولة عِرقية دينية، وفي نفس الوقت تكون من الضعف بحيث تُتيح لإسرائيل السيطرة الكاملة على تلك الدُّوَيلات.

وحين قرأت مذكرات محمد إبراهيم كامل، وجدت أن مصر قد أُضيرت ضررًا هائلًا بمبادرة السلام وباتفاقيات كامب ديفيد، وأن كنه هذا الضرر وأبعاده شيء لا يمكن معرفته

إلا بالرجوع إلى مذكرات الرجل الذي شهد تلك المفاوضات من داخل المعسكر الساداتي نفسه؛ فهي ليست مذكرات كُتبت من أجل أن يُطالعها الإنسان في وقت فراغه، ولكنها وثيقةٌ خطيرة لا بد لأي إنسان لديه ذرة من الوطنية، حتى لو كان مؤمنًا بالسادات وسياسته، أن يتوقف عندها طويلًا، ويُراجع رأيه وحساباته في سياسة السادات تجاه أمريكا وإسرائيل، بل وفي سياسته كلها داخليًّا وخارجيًّا.

وقد وجدت نفسي، قبل أن أكتب تعليقي على مذكرات إبراهيم كامل وبعد أن كتبته، بين أحد أمرين:

إما أن أُبقي هذا الرأي لنفسي حتى لا أجرَّ على نفسي مشاكل، خاصةً وصحفيُّو وكُتاب السادات لا يزالون، بربطة المعلم، يحتلُّون الساحة الصحفية والسياسية، لم يتغير منهم أحد، بل هم أقوى مما كانوا في عصر السادات؛ ففي عصر السادات كان الواحد منهم يخاف أن يُغضبه فيطرده، والجميع يُحاولون إرضاءه ويتنافسون فيما بينهم؛ مما كان يخلق بينهم حزازات وعداوات لا تُحصى، أما اليوم فهم تكتَّلوا يُدافعون عن بعضهم البعض ويُشكلون كتيبةً مُترابِطة تصرخ في وجه كل من يقترب من أحدهم أو منهم جميعًا، أو من الرجل الذي صنعهم ويرفعون رايته، السادات، حتى لو كان بعضهم قد انتقد السادات بعد موته وبدأ يعدُّ العُدة للهرب من الصف، الآن هم توحَّدوا، يُدافعون عن وجودهم هم وعن مصالحهم وعن رقابهم، بحيث أصبحوا أكثر عدوانية وشراسة، وبحيث أصبح نقد السادات أي نقد ربما أصعب من نقده وهو حي؛ فقد كان بعضهم ينكص عن مهاجمة من ينتقد حتى لا يُقال عنه إنه كاتب السلطان والسلطة. الآن، وبعد وفاة السادات، هم ليسوا كُتاب السلطان؛ فقد مات السلطان، وإنما هم كُتاب «مبدأ» يُدافعون عن السادات عن «مبدأ»، وكأن لا مصلحة لهم أبدًا في الدفاع عن السادات!

إما هذا … وإما أن أنشر رأيي على الناس وأُبشِّر به؛ فإذا رد عليَّ أحد فإني على استعداد للرد عليه ومناقشته، ولم يكن أروع لديَّ من أن يخرج لي أحدهم ويُفنِّد ما قُلته جميعًا، ويُثبت لي وللقرَّاء أني على خطأ؛ فالكاتب حين يكتب، أقصد الكاتب الصادق الشريف مع ذاته ورأيه، لا يتصور أن كتابته كتاب أُنزل، وإنما هو يتصورها آخر اجتهاداته في هذا الشأن أو ذاك؛ فإذا صمدت للرأي أو للجدل كان بها، وإذا انتصر عليها رأي أو اجتهاد آخر فأهلًا به.

وأخذت بالرأي الثاني في الحال وبلا أي تفكير؛ فأن يرى الكاتب رأيًا ويُخفيه عن الآخرين طلبًا للسلامة هو قمة خيانة النفس في رأيي، مهما جلب عليه الرأي من متاعب؛

فآخر ما يحسبه الكاتب هو المتاعب التي سيجرُّها عليه رأيه، فهمُّه كله مُنصرِف إلى تمحيص هذا الرأي وإيصاله للقارئ مهما كلَّفه هذا من جهد وتضحية، أحيانًا يُكلِّفه الرأي حياته، غير مهم، أحيانًا يُكلِّفه حريته، غير مهم. حين قُبِض عليَّ عقب معارضتي لمعاهدة ١٩٥٤م التي أبرمها جمال عبد الناصر مع البريطانيين، وسُمِّيت معاهدة الجلاء، كنت وأنا في زنزانتي الانفرادية في «القلعة» أسعد إنسان بهذا السجن؛ إذ كنت أُحسُّ أني بسجني إنما أدفع ثمن قول رأي في بلدٍ يُعاقِب بالسجن صاحب الرأي، ومعنى هذا أن وجودي في السجن نتيجة طبيعية تمامًا؛ فالحكومات في العالم الثالث لا تنعم بالنياشين على أصحاب الرأي، خاصةً إذا كان رأيًا مُعارضًا آخر. إنها تُعاقِبه على رأيه وتضربه، وأحيانًا تقتله.

وهكذا قرَّرت أن أنشر المقالات، وأعطيتها لمدير مكتب «القبس» في القاهرة، وهو زميل عضو في نقابة الصحفيين المصريين، وصحفي مصري مُتمرِّس أُوثر أن أُبعده عن المتاعب؛ فالرجل ليس وحده، إن هناك أكثر من خمسمائة صحفي مصري يتعاملون مع الجرائد العربية، وهذا شيءٌ طبيعي جدًّا؛ فهم، مثلهم مثل الأطباء المصريين والمدرسين المصريين والعمال المصريين والفلاحين المصريين، لا يجدون أي غضاضة في العمل في الصحف العربية. والعيب ليس عيبهم أبدًا، إنما هو عيب أولئك المُلوِّثين الذين يكتبون التقارير عن زملائهم في جرائدهم، الذين يتَّهمون مئات الصحفيين هؤلاء بأنهم «يخونون» مصر؛ فهؤلاء هم العملاء حقًّا، عملاء كل عهد وكل حكم، من أيام فاروق أيام المصاريف السرية إلى عهدنا الآن؛ ذلك الذي يدفع «وظائف» و«سلطات» تأتي من ورائها مكاسب لمن يرضى عنهم ويرضونهم من بعض صغار الصحفيين.

كان ذلك كما قلت في الشتاء الماضي.

وطلبت من الزميل مدير «القبس»، ومن رئيس تحرير القبس حين خاطَبني تليفونيًّا بعد هذا، سرعة نشر المقالات، ووعدني بسرعة النشر، ولكن النشر تأخَّر، حتى بدأت أفكر في فسخ التعاقد على النشر؛ فالموضوع كان لا يحتمل التأجيل في رأيي، ولم أكن أعرف سببًا معقولًا للتأجيل.

وفيما بعدُ عرفت السبب.

فجريدة «الوطن» الكويتية كانت قد تعاقدت على نشر فصول كتاب «خريف الغضب» ابتداءً من أبريل.

و«القبس» ادَّخرت مقالاتي — لتُنشَر — لأسباب منافسة صحفية «لا تخفى على القارئ» في نفس الوقت.

ولو كنت أعرف هذا لرفضت المبدأ؛ فالمسألة في رأيي أخطر من أن تُؤخذ على أنها منافسةٌ صحفية أو قلمية. إنه رأيي الذي أريد له الظهور بأسرع وقت.

ولكني لم أكن أعرف، بل لم أكن أعرف أن كتاب «هيكل» سيصدر بالعربية في ذلك التاريخ، وأيضًا لو كنت قد عرفت لرفضت أن تُنافِس مقالاتي «خريف الغضب»؛ فتلك مسائل صغيرة، والقضية التي أناقشها أكبر وأخطر بكثير.

إنما هذا هو ما حدث.

وربما لو كنت قد صدرت مقالاتي فور كتابتها لتغيَّر الوضع، ولكني حتى وهي قد صدرت في قمة زوبعة أبريل الأمشيرية الخماسينية التي تُعمي العيون فأنا أبدًا غير آسف.

فالرأي الصحيح لا يهمُّ موعد صدوره أو ظروف صدوره. إني فقط أذكُر هذه الحقائق لأوضِّح لبعض من التبس عليهم الأمر وظنُّوا أن «القبس» كلَّفتني «بسرعة» لكتابة مقالاتي حتى تُنافِس بها فصول «خريف الغضب»، فيما أسماه لي رئيس تحرير قومي أعتزُّ به «موسم الهجوم على السادات».

ولكني أعذره.

بل وأعذر الكثيرين الذين خفيت عنهم كل هذه الحقائق، ورأوا «من الخارج» أنها لم تكن صدفة، وأنها عملٌ مُدبَّر و«مؤامرة»!

ومؤامرة النشر، كما ذكرت، مؤامرة تنافُس صحفي، مهما كان فهو مشروع.

أما المؤامرة الحقيقية فهي ما حدث بعد النشر.

مؤامرة، رغم خيالي الواسع، لم تخطر لي على بال أو خيال.

إذ كنت قد سافرت إلى أثينا في الأسبوع الثاني من شهر أبريل الماضي بدعوة من لجنة التضامن الأفريقية الآسيوية المصرية لحضور مؤتمر لمناصرة القضية الفلسطينية، يُعقَد في أثينا في الفترة من ٩ إلى ١٢ أبريل.

وعدت بعد أسبوع لأُفاجأ في اليوم التالي مباشرةً بمربعٍ ضخم في جريدة الأهرام تحت عنوان «من بريد القرَّاء»، مربع يحتل نصف الصفحة، وبطريقة تحريضية مباشرة يحتوي على إعلانَين؛ أحدهما عن سلسلة مقالاتي «البحث عن السادات»، والآخر عن كتاب الأستاذ محمد حسنين هيكل «خريف الغضب». والإعلانان كانا قد نُشرا في جريدة «الخليج» التي تصدر في الإمارات العربية المتحدة، والتي كانت قد أخذت على عاتقها أن تنشر مقالاتي وفصول كتاب هيكل، نقلًا عن جريدة القبس والوطن الكويتيتَين.

فوجئت بعدة أشياء:

فأولًا: كان إعلان جريدة «الخليج» عن المقالات إعلانًا من النوع الذي تحفل به صحف الإثارة عندنا وفي الخارج، بل والإثارة المُبالَغ فيها التي تصل إلى حدِّ الاستفزاز الشديد، وقد أخذ الإعلان كلمات من جملة مقالاتي السبع، كلمات مُبعثَرة على طول صفحات المقالات المنشورة، ووُضعت بجوار بعضها البعض على طريقة اجتزاء الجُمل والفقرات، مثل: لا تقربوا الصلاة. والحق أن الإعلان أغضبني تمامًا.

وثانيًا: ولكن الذي أغضبني أكثر في الحقيقة هو الطريقة التآمرية التي نُشر بها الإعلان؛ فأنا أعمل في الأهرام، والأهرام أكثر الجرائد احترامًا في مصر والعالم العربي، وقد كان جديرًا بالمسئولين عن التحرير فيه أن يعرضوا عليَّ الإعلان ويُعطوني أنا فرصة التعليق عليه، أنا نفسي، واستنكاره، أو إن لم أفعل يكونون قد قاموا بما يُمليه عليهم شرف مهنة الصحافة، وحينذاك يصبحون أحرارًا في نشر الإعلان والتعليق عليه.

ثالثًا: كان التعليق واضح الادِّعاء والتزوير؛ فقد زعم المُحرِّر (وقد ثبت أنه لم يكن المُحرِّر الأصلي لباب بريد القرَّاء في الأهرام، ولكنه مدير تحرير الأهرام الذي كان مسئولًا بعد سفر رئيس التحرير إلى الخارج) زعم المحرِّر أنه تلقَّى مئات الخطابات تستنكر المقالات (التي لم تكن قد نُشرت في القبس أو الخليج)، وأن مُرسلي بعض الخطابات قد قصُّوا الإعلان المذكور من جريدة الخليج وأرسلوه إلى الأهرام.

وذكر «قارئ» كان واضحًا أنه ليس سوى مدير تحرير الأهرام مُتنكِّرًا خلف قارئ مجهول، ذكر أنني وصفت حرب أكتوبر بأنها تمثيليةٌ متفَق عليها بين السادات وإسرائيل وأمريكا، وهو ادِّعاءٌ كاذب؛ فليس في المقالات كلها كلمة تمثيلية، وليس فيها أي طعن في أداء الجيش المصري البطولي في أكتوبر، وكل ما فيها خاصًّا بحرب أكتوبر لم يكن سوى فقرة واحدة من المقال الثاني على هيئة تساؤلات حول طعنة الثغرة التي وُجهت إلى ظهر الجيش المصري وهو في قمة انتصاره؛ لتُتيح لإسرائيل وضعًا عسكريًّا تَعبُر فيه قواتها إلى غرب القناة وتُحاصِر الجيش الثالث، وتقطع الإمدادات عن مدينة السويس، وتنتشر داخل الأرض المصرية، وهو أمرٌ كان مُمكنًا تمامًا ألا يحدث لو كانت القيادة السياسية للحرب، المُتمثِّلة في شخص رئيس الجمهورية آنذاك والقائد الأعلى للقوات المسلحة أنور السادات، لو كان قد وافَق على ضرب رأس الجسر الذي أقامه الإسرائيليون، والذي كان الجيش المصري قد تدرَّب على ضربه، وخصَّص له اللواء ٢٥ المدرع، الذي لم يسمح السادات بإعادته من شرق القناة إلى غربها حين اكتُشفت الثغرة ليتولَّى القضاء عليها تمامًا. ولو

كان هذا حدث لما اضطُرَّت مصر إلى دخول مفاوضات فض الاشتباك، ولحصلت على الجلاء الإسرائيلي الكامل عن سيناء دون التورط في اتفاقية كامب ديفيد الأولى، مما يجد القارئ له تفصيلًا في المقالة التي كتبها السيد حافظ إسماعيل، مستشار الأمن القومي المصري آنذاك، ونشرها بمجلة المصور في العدد ٣٠٧٥ (١٣ مايو ١٩٨٣م).

ورابعًا: اتَّضح في الأيام التالية أن هذا الإعلان المُزوَّر المُحرِّض في الأهرام ليس سوى الخطوة الأولى والتمهيد المبدئي لعملية مُخطَّطة تمامًا ومُوزَّعة الأدوار؛ فقد فوجئت في اليوم التالي بانعقاد المجلس الأعلى للصحافة، وما دار فيه من مناقشاتٍ كلها اتهاماتٌ صارخة بأني قلت إن حرب أكتوبر «تمثيلية»، وإن هذا إجرام في حق بطولة الجيش المصري، واستهتارٌ ما بعده استهتار بدماء الشهداء الأبطال، وكأنهم ماتوا وهم «يُمثِّلون» الاستشهاد.

إعلان تنشره جريدة خليجية بطريقة مُثيرة عن سلسلة مقالات لي، ويُضيف له مدير تحرير الأهرام من عنده على لسان قارئ أنني فوق التساؤلات عن حقيقة دور السادات، قلت إن حرب أكتوبر تمثيلية. يجتمع المجلس الأعلى للصحافة، يأخذ هذا القول المُزوَّر على أنه حقيقة، ويُبنى عليها اتهام، ودون أن يسمع المجلس وجهة نظري، أو يحفل بأن يرى المقالات أو يقرأها ويرى إذا كنت حقًّا قد قلت هذا الكلام أم لم أقله، يخرج بإدانة صارخة لما كتبته وإدانة لي ككاتب.

وهذا الذي لم يحدث في بلاد الماو ماو، يحدث في القاهرة في عام ١٩٨٣م، وفي ظل ظروف انفراجة ديمقراطية، وفي ظل حرية صحافة.

ومع هذا … فقد حاولت أن أنشر تكذيبًا لما ذكرته الأهرام في الأهرام، فرفض مدير التحرير المذكور نشره.

وحاولت نشر التكذيب في كل الصحف «القومية» الأخرى، فرفضت جميعًا.

وحاولت الدفاع عن نفسي وإدانة قرار المجلس الأعلى للصحافة، باعتباره قرارًا باطلًا بُنِي على كلامٍ باطل، ودون أن يُسمَع لي رأي أو يقرأ أحدٌ ما كتبته.

وأيضًا رفضَت كل الصحف المصرية الحكومية أن تنشر لي حرفًا.

وبناءً على تزوير مدير الأهرام وإدانة مجلس الصحافة، بدأت حملةٌ ضارية من المقالات والاتهامات تتَّهمني بنبش قبور الموتى، وأني نافقت السادات حيًّا وهاجمته ميتًا، وأن السادات عالجني على نفقته، بل وأضاف رئيس تحرير «مايو» اتهامًا آخر من عنده، بأني كتبت هذه المقالات بأمر من القذافي، ونشرتها في جريدة «القبس» الكويتية، بل ووصلت الحملة الإرهابية إلى حد أن كاتبًا من كُتاب الأعمدة في جريدة الأخبار زعم أن

مقالاتي وكتاب «هيكل» لم يُنشَرا صدفة، وإنما هما جزء من خطة دولية بتوجيه من موسكو لإفشال المفاوضات اللبنانية الإسرائيلية وإشاعة جو الفوضى في المنطقة.

وكل هذا يحدث دون أن يقرأ أحدٌ ما نُشر في المقالات، إنما كله مبني فقط على حكاية «التمثيلية» التي زوَّرها مدير الأهرام على لسان قارئ.

والحقيقة أن المفاجأة الكبرى كانت أول مايو؛ ففي صباح ذلك اليوم نشرت جريدة الأخبار موضوعها الرئيسي عني وعن كيف أني اغتلت نفسي بنفسي، وكيف أني انتهيت، وأن الأسى يُقطِّع قلب كاتب المقال (ثبت أنه موسى صبري) على ما وصلت إليه.

ولم أكن أتصوَّر أن كذبة بدأها مدير تحرير الأهرام ممكن أن تتضخم ككرة الثلج، وتتحول إلى «حقيقة» تدينني من أجلها كل الصحف الحكومية، بل و«تفبرك» خطابات من قرَّاء لأخبار اليوم تستهجن ما فعلته وتُطالب برأسي، ويُطالب كاريكاتير منشور في نفس الصحيفة الجيشَ المصري العظيم بأن يسحق هذا المُفتري على بطولته المجيدة في أكتوبر.

لكي يتصور القارئ مقدار ذهولي من هذه الحملة المُدبَّرة بعناية وإحكام، فليتصور أن جريدةً ما في مصر نشرت أنه (أي القارئ) يقول عن ثورة عرابي مثلًا إنها تمثيليةٌ متفَق عليها بين عرابي والخديوي والإنجليز. تستيقظ أيها القارئ من النوم فتجد اسمك مقرونًا بالتهمة، فتُحاول تكذيبها، فإذا بالجرائد كلها تتلقَّف الكذبة مقرونةً باسمك بالطبع، وتُحرِّض الناس والجيش والدولة وكلَّ وطنيٍّ يؤمن بالثورة العرابية عليك، ولا يُسمَح لك أبدًا بأن تنشر أن هذا كذب وأنك لم تقل، وحين تتفرَّع الاتهامات فيزيدون عليها بأنك قلت هذا الرأي في الثورة العرابية تنفيذًا لتعليمات رئيس دولة أجنبي.

وحين يحدث لك هذا أعتقد أنك، ما دمت مُطمئنًّا إلى الحقيقة وأن شيئًا كهذا لم يحدث، ستقول إنها مسألة حقد مهني، وإن الحق لا يلبث أن يظهر، وإن كل شيء سيتَّضح، وإنك ستأخذ حقَّك كاملًا من هؤلاء الذين حاولوا تشويه سمعتك وشخصك.

ولكن … حين تُحاوِل أن تُكذِّب وتُصحِّح فتجد أنك ممنوع من القول ومن الكتابة، وأن نشر الكذبة لم يكن إلا مقدمة بسيطة لخطة خبيثة مُدبَّرة لإقناع جماهير القرَّاء أنك قلت وفعلت وارتكبت كل ما يلصقونه بك؛ حينذاك تبدأ تغضب، وتبدأ تُحسُّ أنك مخنوق، وأنك وأنت الكاتب تُجرِّب أسوأ تَجرِبة ممكن أن يمرَّ بها إنسان؛ حرمانه من قول رأيه أو الدفاع عن نفسه. وهذا بالضبط ما كنت أُحسُّه حين بدأت أستمع إلى خطاب الرئيس محمد حسني مبارك في عيد العمال.

فقد كنت مؤمنًا أن رئيس الدولة بكل ما لديه من وسائل لمعرفة الحقيقة سوف يطَّلع على ما كتبته، وأنه سيُعيد هؤلاء الناس إلى رُشدهم، وسيضع النُّقط فوق الحروف، ويوضح تمامًا مسألة لقائي بالقذافي التي تمَّت في أواخر العام الماضي ١٩٨٢م، والتي كتبت بشأنها تقريرًا على هيئة خطاب أودعته مكتب الرئيس بعد عجزي عن لقائه.

كنت أستمع لخطاب الرئيس وأنا مُتأكِّد أنه سيوقف هذه الحملة الظالمة، وسيزجر من تسبَّبوا فيها من كُتاب وصحفيِّي الحزب الوطني الحاكم.

ولكن هذا للأسف لم يحدث.

وبدلًا منه وجدت كلمات أخرى. ولندَع هذا العمود الذي نُشِر في جريدة حزب العمل «الشعب» تعليقًا على خطاب أول مايو، والذي أخبرني الأستاذ حامد زيدان رئيس التحرير أن كاتب هذا العمود هو الأستاذ الدكتور محمد حلمي مراد، يقول:

> «اتهم الرئيس حسني مبارك في خطابه يوم عيد العمال كاتبًا معروفًا هو الأستاذ يوسف إدريس اتهامًا خطيرًا، يُعتبر — حسب تعبير الكاتب — طعنة في صميم وطنيَّته وذمته وكبريائه، ومُجمَل هذا الاتهام أنه تقاضى خمسة آلاف دولار من الرئيس الليبي معمر القذافي ليكتب مقالاته التي نشرها في جريدة القبس الكويتية، والتي أُثير حولها الصخب والضجيج دون أن يطَّلع أحد عليها، ودون أن يُسمَح لكاتبها ببيان وجهة نظره.
>
> وقد أنكر الكاتب الموجَّه له هذا الاتهام الخطير على لسان رئيس الدولة ما طُعن به، ونشر مقالًا بهذا المعنى في صحيفة الأحرار، وهي الصحيفة التي قال إنها قبلت أن تنشر له دفاعه عن نفسه بعد أن أغلقت الصحف المُسمَّاة بالقومية في وجهه، حتى جريدة الأهرام التي يعمل بها.
>
> وصاغ الكاتب هذا المقال في صورة خطاب مفتوح إلى الرئيس مبارك بعنوان «إنني أتظلَّم منك إليك»، وأعلن فيه: «إن طعني في شرفي وعلى الملأ هكذا مسألةٌ أهوَنُ منها عندي حكمُ الإعدام؛ إذ إن طعن الكاتب في شرفه من رئيس الدولة إعدام، إنه حكم بالإعدام، وإعدام غير مُشرِّف.» وذكر أنه يجب الفصل بين مقابلته للقذافي التي أخطر الرئيس مبارك بعد عودته بما تمَّ فيها في خطاب سلَّمه لسكرتاريته الخاصة بعد أن عجز عن تحديد موعد لمقابلته، وبين ما كتبه في إحدى الصحف العربية نتيجة عدم إتاحة الفرصة له بالكتابة بِحرية في جريدة الأهرام التي يعمل بها. وقرَّر أنه ضحية مؤامرة كبرى من بعض

الجرائد القومية وصحيفة «مايو» وعشرات الأقلام الخبيثة لتُؤلِّب عليه الرأي العام والقوات المسلحة ورئيس الجمهورية، وأنه كان كفيلًا بهم جميعًا لو أُتيحَ له أن يردَّ عليهم حيث يكتبون، أما حين يستغيثون بالرئيس ويُنصفهم ويخذله، فليس عليه إلا أن يتظلَّم منه إليه.

وقال بصراحة: «إذا كان بعض الناس وبعض الأجهزة قد وضعت أمام سيادتكم معلومات هي التي دفعتكم لهذا القول، فإنني لا أطالب فقط بردِّ اعتباري، وإنما أطلب وأُلحُّ أن يُحاسَب هؤلاء الأشخاص وتُحاسَب تلك الأجهزة.»

وهذا ما نُطالِب به، ويتلخص في إجراء تحقيق قضائي حول هذا الاتهام الخطير؛ إذ إنها سابقةٌ خطيرة أن تقدم اتهامات لشخصيات عامة أو خصوم سياسيين أو أصحاب الفكر وحملة الأقلام ضِمن تقارير مشكوك فيها، ودون أن تستند إلى أدلةٍ قاطعة لا بد أن تُعرَض على القضاء للتحقق منها قبل أن تُلطَّخ سمعة أحد من هؤلاء؛ لما ينطوي عليه ذلك من إرهاب فكري شنيع.

وإذا كان وزير الداخلية السابق النبوي إسماعيل قد لجأ إلى هذا الأسلوب بالنسبة لاتهام النائب السابق أحمد طه وآخرين معه بالتخابر مع دولةٍ أجنبية هي بلغاريا للتأثير على موقفه الانتخابي، وبالنسبة لاتهام المرحوم الدكتور المهندس محمود القاضي ونائب رئيس مجلس الوزراء السابق عبد السلام الزيَّات وعدد من الشخصيات السياسية ممن كانوا تحت التحفظ في سبتمبر المشئوم بالتخابر مع دولةٍ أجنبية أخرى وهي الاتحاد السوفييتي، ثم ثبت من التحقيق في الاتهامَين عدم صحتهما، فإن من الواجب وضعَ حدٍّ لهذه الأساليب البشعة، والمفارقات التي كنا نعتقد أنها انتهت بانتهاء عهد النبوي إسماعيل الذي يجب محاكمته عنها.»

وإلى هنا تنتهي كلمة جريدة الشعب.

والحقيقة أنني وأنا أجلس الآن، وشريط الأحداث يمرُّ أمام عيني، وأعود مرةً أخرى أعيش أحداث العاصفة الهوجاء الكاذبة المليئة بالرمل والتراب والقذى، الآن وبعد أن اتَّضحت حقائق كثيرة، واتَّضح للجميع أنني لم أذكر أبدًا كلمة تمثيلية، وأن لقائي للقذافي أو للرئيس مبارك لا علاقة له من قريب أو بعيد بما كتبته وما أكتبه، وأن الموضوع كله كان مؤامرةً حقيرة لاغتيالي ككاتب، والإيقاع في وقتٍ واحد بيني وبين رئيس الجمهورية، وبيني وبين قواتنا المسلحة البطلة، وبيني وبين قُرائي والشعب المصري بأجمعه، وأن هذه

المؤامرة الدنسة إذا كانت قد فشلت تمامًا وارتدَّت إلى نحور أصحابها، فإني إذ أنشر نص مقالات «البحث عن السادات» لا أفعل هذا فقط لأنشر الحقيقة على الناس، وإنما لأطالب بعدها بمحاسبة كل مقامر أو مجرم اشترك في هذه المؤامرة.

فهي لم تكن مؤامرة عليَّ وحدي، وإنما أيضًا مؤامرة على قيادتنا السياسية وعلى رئيس الدولة ليجعلوه «يضرب» على الملأ كاتبًا وطنيًّا ليس في تاريخه شبهة اتهام أو حتى مجاملة لأحد؛ ليجعلوا من هذا الكاتب رأس الذئب الطائر الذي يُخيفون به المعارضة وكل إنسان مُخلِص يخطر له قولُ رأي في السادات وعصره يُخالِف رأيهم. وهكذا أقول مرةً أخرى: لقد بدا واضحًا الآن أن الرئيس السادات، وإن كان قد مات، ومات على هذه الصورة البشعة وكأنها صورة تنفيذ حكم إعدام في خائن، إن كان قد مات فإن العصابة الصحفية التي عيَّنها في حياته، واختارها بعناية لتُنافِق كل خطوة يخطوها، وكل تفريط في حقوق الشعب المصري يفرط به، وتُزيِّن للناس كل أخطائه على أنها مزايا، وتُفلسف تفريطه المهول في المفاوضات مع إسرائيل وأمريكا على أنه انتصارٌ ما بعده انتصار، واضح تمامًا أن هذه العصابة لا تريد أن تحمي السادات وسياساته، ومنها على سبيل المثال إدارته السياسية لحرب أكتوبر على تلك الطريقة المُغرِقة في تهافتها، بحيث ضيَّع علينا انتصار جيشنا العظيم في حرب أكتوبر، واضح تمامًا أنهم يريدون إغلاق الأفواه وعصب الأعيُن عن أن نرى ما فعله السادات بنا، مثلما كانت تُغلَق الأفواه وتعمى الأعين عمَّا يفعله أخوه عصمت وعائلته من نهب لم يحدث له مثيل في كل تاريخ مصر. ولولا أن عصمت السادات قُدِّم للمحاكمة بعد موت أخيه، لما كان أحد قد عرف أو تصوَّر كمَّ ونوع الجرائم التي ارتكبتها الأسرة الساداتية الحاكمة.

ولأني أعتبر أن جرائم عصمت السادات الذميمة والجنائية، رغم ضخامتها وبشاعتها، لا تُعَد شيئًا بجوار الجرائم السياسية التي ارتكبها السادات، فإني في هذه المقالات لم أكن أبحث عن سرقة هنا أو اختلاس لثروات هناك، لم أكن أبحث حتى عن اتفاقه مع الإسرائيليين على مشروع يُحوِّل لهم فيه ماء النيل فيما كان يريد تسميته «ترعة السلام»، التي لا تزال مواسيرها وبكمٍّ هائل موجودةً في الدلتا وبجوار قناة السويس، استعدادًا للتنفيذ، لا أتحدَّث في تلك المقالات عن الآثار المسروقة والمنهوبة والمباعة، ولا عن مشروع قصر العيني ولا جمعية الوفاء، ولا أي جرائم استغلال نفوذ؛ فهذا كله شيءٌ آخر غير ما هدفت إليه؛ فما هدفت إليه كان محاولة لرسم الدور الخطير الذي لعبه أنور السادات بالاتفاق مع الأمريكان وإسرائيل، وحوَّل به مصر من دولة مستقلة ذات سيادة إلى دولة تابعة خاضعة للنفوذ الأمريكي والإسرائيلي تمامًا، معزولة عن كل العرب والأفارقة، مطرودة من كل اجتماع

عربي أو إسلامي أو عدم انحياز أو أفريقي، دولة منبوذة مُستباحة يكرها العالم كله إلا أمريكا الشريك الكامل، وإسرائيل المنبوذة هي الأخرى، بحيث تُشكل هي وجنوب أفريقيا ومصر السادات ثلاثيًّا مرفوضًا على مستوى العالم كله.

كان هدفي أن أرى ماذا حدث لنا، وكيف حدث لنا، ودور السادات فيه؛ فليس الفساد الاقتصادي ولا السرقات هي أبشع الأشياء، إن الفساد السياسي والجرائم السياسية أخطر بكثير من أي سرقة أو اختلاس؛ فهي جرائم في حق الشعب المصري كله.

والملف لا يزال مفتوحًا.

وإن كان من فضل لتلك المقالات في البحث عن السادات وعصابة السادات، إلا أنها مع غيرها قد فتحت الملف السياسي الساداتي؛ ليعرف المصريون والناس جميعًا كيف غرَّر بهم في حربهم المجيدة مع إسرائيل، وإخضاعهم رغم أنفهم للسياسة الاستعمارية الأمريكية، بحيث يسلم الاستقلال العظيم الذي حصلت عليه مصر بثورة ٢٣ يوليو وكفاحها الوطني المجيد عبر مائتَي عام وتزيد، مرورًا بالثورة العرابية وثورة ١٩ وثورة ٤٦، يسلم هذا الاستقلال بمؤامرة لم يحدث لها مثيل، وبلا أي مقابل؛ ليُصبح محل عبث وتصرُّف إسرائيل والاستعمار الأمريكي.

إن جزءًا كبيرًا من تلك المؤامرة يكمن في إخفائها عن المصريين، وفي إبقاء عيونهم مُغلَقة عن أن ترى أيَّ وضعٍ رداهم فيه السادات بسياسته. وفي إبقاء وعيهم غائبًا مُشتَّتًا للحصول على القوت الضروري، مجرد الحصول على الغذاء والكساء واتقاء شر الحوادث والمصائب، بحيث يغيب الوعي ويضلُّ العقل، ولا يعود المُواطِن المصري يرى أو يهتمُّ إلا بأمور حياته وليومه هذا فقط.

وإذا كانت الخطة العظمى قد دبَّرت غزو لبنان وتشريد الفلسطينيين وإشغال العراق بالحرب مع إيران، والجزائر والمغرب بالبوليزاريو، والسودان بليبيا، وليبيا بتشاد، واليمن باليمن، والسعودية بالأوبك، وسوريا بالعراق والأردن وإسرائيل، والأردن بالفلسطينيين، فإن الخطة بالنسبة للشعب المصري هي إيهامه أن مصلحته العليا هي في نفض يده تمامًا عن العرب ومشاكلهم، وكأن خمسة ملايين مصري لا يعملون في الدول العربية، وكأن معظم الدخل المصري الخارجي لا يأتي على هيئة تحويلات من المصريين العاملين هناك، وكأن من الممكن تصوُّر وجود مصري «مستقل» عن العرب، أو وجود عرب مستقلين عن مصر.

تلك هي الكذبة الكبرى التي جعلَنا السادات بوسائل إعلامه نؤمن بها ونُصدِّقها، والتي آن الأوان للكشف عن محتواها الخبيث؛ فإن حصار الوجود المصري داخل حدود مصر الجغرافية هو إضعاف لمصر وخيانة لها، ولوجودها الحقيقي الكامن في امتداد نفوذها وعلاقتها إلى الدول العربية كلها؛ فهي بمثابة القلب لتلك الدول. وإذا خلَّصنا القلب من الجسم، فماذا يتبقَّى من قوته؟ إن قوته تكمن في الوجود داخل جسد حي يتفاعل معه ويُزوِّده بالدم الذي يضخُّه.

لقد عِشنا في تلك الأكذوبة الكبرى التي كان القصد منها إضعاف مصر إلى حد العدم، إلى حد عدم الفاعلية تمامًا، وشلِّها عن أن تؤدي دورها الطبيعي، ويكون لها حجمها الطبيعي، وعمل هذه الجريمة بدعوى «العيش في سلام ورخاء»، فأين هو السلام وثَمة ١٧ فِرقة إسرائيلية مستعدة ورابضة في صحراء النقب وكأنها المسدس المرفوع كي لا نُحرِّك قدمًا أو يدًا؟! وأين هو الرخاء والأسعار قد أصبحت نارًا موقدة ونحن في قمة «السلام»؟ بينما كانت أقل بكثير ونحن في قمة «الحرب» والاستعداد للحرب؟

إني لا أريد بهذا التعليق أن أكتب كتابًا آخر أبحث فيه خدعة «السلام» التي نحيا فيها، وخدعة نفض يدنا من العرب ومشاكل العرب التي جعلتنا ننعزل وننكمش داخل حدودنا يفترسنا غول الغلاء والمشاكل اليومية المُتكاثرة؛ فجزء من المؤامرة الكبرى لكيلا يفكر الشعب المصري في واقعه، وفيما دار من وراء ظهره، هو إشغال الناس تمامًا بأمور حياتهم اليومية ومتاعبها؛ حتى لا يبقى لديهم وقت لإعمال أي فِكر أو تأمُّل، وفي البقاء في حالة «التولة» التي كتبت عنها مرة في مُفكرتي بالأهرام.

ونحن لا يمكن أن نعالج «التولة» بمزيد من التولة، إنما نعالجها بأن نفيق، بأن نصحو، بأن يستيقظ منا الوعي والعقل، بأن نعرف من يضحكون علينا ويُخدِّروننا ويخدعوننا، بأن نكشفهم، بأن نكشف لماذا يقفون تلك المواقف، ولماذا يُدافعون باستماتة عن عصر أدَّى بنا لما نحن في الآن.

وإذا لم تكن تلك المقالات قد فعلت إلا أنها كانت شمعةً ضئيلة أُوقدت في الظلام الدامس، وأنها مع غيرها من الشموع والحقائق ستهزم جيوش الظلام، وحتمًا وعلى الضوء المُنهمِر المُتكاثر سنرى، وعلى النقاش مهما علا سنصحو.

إذا لم تكن قد فعلت سوى هذا، فأشكر الله أن هداني كتابتها ونشرها.

وحمدًا لله أني فعلت وأرضيت ضميري.

وأهلًا بكل نتائج إرضاء الله والضمير.

بقيت كلمةٌ أخيرة:

كان المنطق البسيط يُحتِّم أن تظهر هذه المقالات أولًا، وبعد هذا تتمُّ مناقشتها أو إدانتها. وليس غريبًا أن يحدث في عصرنا هذا العكس تمامًا، فتنشب معركةٌ صاخبة حول كلمة مُزوَّرة عن حرب أكتوبر، لا علاقة لها بالخط الأساسي للمقالات، ثم يكون آخر شيء أن يُنشَر نص المقالات كلها، بعد أن ينتهي الصخب المفتعَل وتُمطر السماء شتائم واتهامات.

إليكم المقالات إذَن، ولا أطمع في مناقشتها؛ فليس لدى كُتاب السادات عقول تُناقِش، وأي إنسان يحترم نفسه ويرى ما لا أراه يتحرَّج قطعًا أن ينضمَّ إلى القطيع الساداتي المأجور ويرى ما لا أراه في السادات، ولكنها شهادة أضعها أمام التاريخ، وأطلب من المواطنين جميعًا، حتى لو كان بعضهم قد خدعته الدعاية الأمريكية الساداتية، أن يجلس على مهله ويقرأها ويتأمَّل، ويُصدِر لنفسه حكمًا.

وفي نفس الوقت أتقدَّم بهذه المقالات إلى النائب العام والمدَّعي الاشتراكي مُطالبًا بالتحقيق معي في كل كلمة كتبتها، وشاكيًا في نفس الوقت كل أجهزة الدولة الرسمية والصحفية والإعلامية بما فيها رئاسة الجمهورية؛ للإهانة العلنية التي وُجِّهت لي دون تحقيق أو مُستنَد، طالبًا محاسبة هذه الجهات كلها عما اقترفته في حقي من ذنبٍ مهول.

وأنا راضٍ بحكم القضاء المصري العادل، وراضٍ تمامًا بحكم الرأي العام؛ فبعد الله والضمير ليس أجمل من رضاء الشعب العظيم.

الدكتور يوسف إدريس

القاهرة، يونيو ١٩٨٣م

هذا هو النص الحرفي للكتاب الذي أخذَت حقَّ نشره جريدةُ «القبس» الكويتية، ونُشِر على هيئة سبعة فصول فيها وفي صحف الخليج والأردن بعنوان: «البحث عن السادات».

السؤال المُلِح

حتى والسادات لا يزال يحيا، كنت مثل الكثيرين غيري نعتقد أن حُكمه ذاك وما قام هو به والنتائج الهائلة التي ترتَّبت على مواقفه وتصرفاته وأفعاله، تُشكِّل فصلًا من أغرب إن لم يكن أغرب فصل في تاريخ منطقتنا كله.

ولنُنحِّ جانبًا كلمات الخيانة والعمالة والدور المخرب وعميل الـ «سي. آي. إيه»، وكل تلك الصفات التي أُطلقت عليه منذ البدايات الأولى لحكمه؛ فلا أعتقد أن حاكمًا عربيًّا آخر أو حتى أي حاكم في الدنيا قد ظفر بهذا الكم من الاتهامات.

لنُنحِّ الصفات أو الجرائم أو الاتهامات جانبًا؛ فما أكثر ما وُصف بها كثيرون غيره. لنُنحِّ حتى الصفات التي وُصفت بها أعماله، وأهمها مبادرة القدس وكامب ديفيد ومعاهدتَي السلام مع إسرائيل. لنُنحِّ هذا كله جانبًا.

ذلك أننا غرقنا في وصف التهمة والتهم، وغرقنا في أخذ ما حدث وكأنها جرائم «تمَّت» وصدرت فيها الأحكام، وكأن مصرع السادات وعلى تلك الصورة التي لم تحدث من قبل، لا في منطقتنا ولا في العالم كله، كأن مصرعه كان نهاية النهاية، وتنفيذ حكم الإعدام في «الخائن»، وإغلاق الدوسيه، وانتهاء الأمر.

فالأمر لم ينتهِ أبدًا.

والأمر في حاجة ليس لإعادة النظر، ولكن لرؤيا أعمق وأشمل، بحيث نرى السنوات العشر الماضية عن بعد ونضعها في منظورها الصحيح داخل تاريخنا الحديث، بحيث نرى أيامنا الحاضرة هذه نفسها ضمن ما كان؛ فالرواية لم تنتهِ بإطلاق الرَّصاص على السادات، والدوسيه أبدًا لم يُغلَق، والحاضر أهمُّ ألف مرة من كل ما فات، حاضر لكي نعرفه لا بد أن نعود نعرف ما فات، بعيون مفتوحة إلى آخرها؛ ففي ذلك الذي فات تكمن بذور وجذور وسيقان الحاضر.

وهكذا ظَلِلت منذ اغتيال السادات أفكِّر.

ما هذا الذي حدث؟ وكيف حدث؟ وهل السادات كان مجرد خاطئ كبير، أو آثم؟ بمعنى هل كان شخصه وأفعاله هي المشكلة كلها، أم إن التاريخ ليس مجموعة من أعمال أفراد عقلاء أو مجانين، بريئين أم مُجرمين؟ التاريخ أو بالأصح هذه الأزمنة التي نحياها لا تحدث المسائل فيها صدفة أبدًا. إننا في حقبة تاريخية تصنعها الخطط المُدبَّرة بعناية والمُنفَّذة بدقة، والتي في صميمها ومضمونها وتنفيذها تضع حساب الخطأ نفسه في التنفيذ لو حدث الخطأ، وتضع البدائل، وتحسب الحساب لكل شيء.

كان السؤال الذي ظلَّ يُلحُّ عليَّ هو التفريق بين دور السادات واتهاماته وبين بقية الأدوار والخُطط؛ فالسادات لم يكن على المسرح وحده، ولم تكن الأحداث كلها تدور في القدس أو مينا هاوس أو كامب ديفيد، بل إني بدأت أشكُّ أن جزءًا من «الكاموفلاج» الموضوع للعملية كلها أن تركز الأضواء جميعها حول بطل واحد من أبطال المأساة، وتُركِّز الضجة كلها حول مواقفه وخياناته، بحيث تتمُّ بقية الفصول بعيدًا عن الأضواء، وفي صمتٍ شِبه تام.

بالضبط، ماذا حدث؟

وهكذا أخذت على عاتقي مهمة أن أفرغ وأنتهي إلى رأي أخير عن الموضوع كله.

ما هذا الذي حدث؟

وكيف حدث؟

وهل هو لا يزال يحدث أم إن الرواية قد انتهت فصولها؟

كان لا بد أن أقوم بدراسةٍ عميقة جادَّة لما حدث خلال وقُبَيل حكم السادات وإلى الآن، دراسة لنفسي أولًا كي أستطيع أن أفهم شخصيًّا وأن أرى. ولم يكن في نيَّتي نشر هذه الدراسة، أو على الأقل كتابتها للنشر، كنت فقط أريد أن أسلِّح نفسي بضوءٍ كافٍ أرى على هداه كل ما تلا وما لا يزال يتلو من أحداث.

وفي سبيل القيام بهذه الدراسة ناقشت عددًا كبيرًا من الناس، أُوثر أن أحتفظ بأسمائهم؛ فبعضهم يحتلُّ مناصب خطيرة، وبعضهم لا يريد الجهر بآرائه، وبعضهم لا أحب أن أحمِّله مشقة إيراد اسمه في موضوع أكتبه، خاصةً إذا كنت قد قرَّرت أن أنشر الموضوع، وقد بقي أسابيع كثيرة قابعًا أمامي فوق ركن المكتب، إلى أن وجدت أنه ليس هناك من حرج أبدًا في نشره على أوسع نطاق؛ فهي مسائل لا تخصُّني وحدي، وإذا كنت قد سعيت إلى كثير من الناس أسألهم الرأي وأناقشهم، فلمَ لا أُشرك معي كل من يريد الاشتراك من القرَّاء وغير القرَّاء؟

بل لم أكتفِ بالمناقشات وبالتأمل الذاتي.

عكفت على دراسة مذكرات هامَّة جدًّا نُشرت خلال العام الماضي؛ ففي العام الماضي والأشهُر القليلة الأخيرة من العام الذي سبق قرأت: مذكرات هنري كيسنجر، أو على الأقل كل ما نشره إلى الآن منها، ومذكرات جيمي كارتر، وأجزاءً من كتابات كثير من الذين عاصَروا وشهدوا أحداث ووقائع زيارة القدس وكامب ديفيد، مثل مذكرات عزرا فايتسمان، وما

نشره سعد الدين الشاذلي عن حرب ٧٣، ومقالات ومذكرات إسماعيل فهمي وزير الخارجية المصرية الأسبق، الذي استقال احتجاجًا على مبادرة القدس.

وأخيرًا قرأت مذكرات محمد إبراهيم كامل وزير الخارجية المصرية، الذي عيَّنه السادات ليَخلف إسماعيل فهمي؛ بمعنى أنه بقَبوله هذا التعيين وعقب استقالة إسماعيل فهمي وبعد مبادرة القدس كان مُوافقًا، وجاء ليُنفِّذ — مُقتنعًا — إطار ومضمون السلام المفروض أن يقوم بين مصر وإسرائيل.

محمد إبراهيم كامل هذا نفسه الذي كان عضوًا في وفد المفاوضات المصري إلى كامب ديفيد؛ ذلك الراضي و«القابل» لمبادرة القدس وقيام السلام، والذي اعتُبر حين عُيِّن واحدًا من الدائرة الداخلية الأساسية للنظام الساداتي أن يستقيل رجلٌ كهذا بسبب بما اكتشفه، وما دار في كامب ديفيد، مسألة ليست مُحيِّرة فقط، ولكنها وكأنما تقولها عالية عريضة لكل أصم: إن ما حدث في كامب ديفيد مسألةٌ مرفوضة تمامًا، حتى من الرجل الذي تحمَّس السادات لتعيينه وترقيته فجأةً من سفير إلى وزير خارجية، وعن حماس أيضًا قبل أن يكون رجل السادات ومُعينًا له في مهمة كانت ممجوجة تمامًا، حتى من أناس داخل النظام الساداتي، ألا وهي مهمة عقد معاهدة سلام شبه مُنفردة بين مصر وإسرائيل.

أن يستقيل رجلٌ كهذا، وأن يبدأ ينشر مذكراته ويشرح لماذا استقال، وماذا دار داخل، على رأي العقيد القذافي كما وصفها أيامها، «إسطبل داود»؛ مسألة كان مفروضًا أن تستوقفنا طويلًا وعميقًا أمامها.

الاحتمالات الأربعة المُرعبة

ولقد جاء نشر مذكرات وزير الخارجية الأسبق للأحداث والوقائع الداخلية لما دار في كامب ديفيد، بعدما قرأنا وصفًا لها على لسان جيمي كارتر، وتمهيدًا رهيبًا بالمدفعية الثقيلة في مذكرات هنري كيسنجر، جاء هذا النشر وكأنه الضربة التي قصمت ظهر البعير. والبعير الذي كان عندي هو بالضبط: ما هذا الذي صنعه السادات بنا، وبالعرب، وبالعالم، وحتى بنفسه؟

ذلك أني كنت قبل هذا دائم التساؤل عن كنه وعلة ما حدث ودار.

• هل كان أنور السادات حسن النية في داخله، غبيًّا أو حتى مُتخلفًا عقليًّا أمام خصوم هم القمة في الذكاء والاستدراج واستعمال أذكى ما تفتَّق عنه العقل البشري من وسائل لغسل أمخاخ بعض قادة العالم الثالث، وبالذات لغسل مخ رئيس جمهورية مصري جاء عقب احتلال مصر لمكان الزعامة، في وطن عربي بدأ يتعرَّف على ذاته وينسق ويتحد ويهدد بأن يصبح القوة السادسة في العالم؟

• أم هو لم يكن غبيًّا، وإنما كان يعرف حقيقة الدور الذي يقوم به، وكان واعيًا تمامًا بما يُراد للأمة العربية على يدَيه من أن تحييد مصر تمامًا — عسكريًّا وسياسيًّا وشعبيًّا — عن الحرب القائمة بين إسرائيل والدول العربية مجتمعة، وعن الخلافات الجذرية القائمة بين كثير من الدول العربية وأمريكا، باعتبار أن تحييد مصر وعزلها سيُسهل مهمة تفكيك الحلف العربي المتبقي ثم هدمه تمامًا قطعة قطعة، وابتلاعه على مهل وفي حال من تمام الاطمئنان؟

• وهل كان وعي السادات بدوره هذا وقَبوله القيام به، بل وحماسه الغريب في تنفيذ المهمة، لأسباب مبدئية؟ أي إنه كان يحب إسرائيل وأمريكا ويكره العرب ويكره حتى الشعب المصري ومصالحه الحقيقية، كراهية مؤمن بالنظام الرأسمالي الاستعماري

الأمريكي والنظام الاستيطاني العنصري اليهودي، إيمانًا لم يوجد له نظير في تاريخ العالم الحديث كله؛ فحتى عملاء أمريكا الرسميون من الحكام لم يكونوا بالضرورة مؤمنين بأمريكا، وإنما كانوا يحتمون بها من شعوبهم أو خوفًا من جارٍ شيوعي أو انقلاب عسكري، أما «الإيمان» وإلى هذه الدرجة، وفوقه إيمان آخر لا يقل عنه صلابة بالعنصرية الإسرائيلية الصهيونية، فشيء لا نجده أبدًا لا في ديكتاتوريِّي أمريكا اللاتينية عملاء الـ «سي. آي. إيه»، ولا في حكام بعض بلاد جنوب شرقي آسيا أو أوروبا، أو حتى جنوب أفريقيا أو نظام إيان سميث العنصري في روديسيا، أبدًا لا نجد لهذا الإيمان نظيرًا أو شبيهًا في العالم كله، فما بالك بإيمان كهذا رسمي من مصر، وعقب حكم أخطر زعيم مصري أعاد اكتشاف عروبة مصر ودورها التاريخي المحتم، وجعل من القضية المصرية التي ظلت لخمسة وسبعين عامًا ومنذ أيام عرابي قضية مصرية فقط، جعل منها قضيةً عربية؛ بمعنى أن الدعوة إلى التحرر الوطني والاشتراكية أُضيفت لها الوحدة في شكل دعوة قومية عربية نقلت المطلب الوطني المصري من مفهوم القرن التاسع عشر إلى مفهوم القرن العشرين، مثل البحث عن الأصول والجذور، واكتشاف الترابط وعلاقة العظم والدم بين مصر وبقية أنحاء الوطن العربي.

أن يأتي هذا الإيمان من خليفة من؟ من خليفة عبد الناصر مُفجِّر وقائد هذه الثورة في المفهوم الوطني والقومي، والذاهب في عدائه لإسرائيل باعتبارها الخنجر المغروس في قلب هذه الأمة بالذات من أجل قتل هذه الروح، ومنع قيام الأمة العملاقة العربية، الذاهب في عدائه لإسرائيل إلى حد عدائه لأوروبا حين كانت تؤيدها وللولايات المتحدة الأمريكية، أقوى قوة عسكرية في العالم، رجل كهذا يَخلفه أو بالأصح يختاره عبد الناصر ليتكشَّف بعد هذا أنه جاء ليس ليهدم فقط كل ما بنته الأمة وعبد الناصر على رأسها في ربع قرن ثائر حاسم مهول، وأن يؤمن بأعداء الأمة والفكرة والثورة إلى درجة لم يؤمن بها أحد من قبل أو من بعد؟

هل فعل السادات هذا كله تحقيقًا لمبدأ كان، كأي صاحب مبدأ آخر، يعتنقه؟

• أم إن إيمانًا ما لم يكن هناك بالمرَّة، وإن السادات قام بدوره وهو مُدرِك تمامًا لقذارة ذلك الدور، ولكن قوة عاتية مُركَّبة هي التي ساقته طائعًا مُختارًا ليفعل ما فعل، وجشع ذاتي مريض كان كامنًا وموجودًا بل ومعروفًا، بالذات لعبد الناصر، كما سنرى فيما بعد، جشع ذاتي رهيب للملذَّات بكل أنواعها، وللغنى بكل أنواعه، وللانحراف بكل فصائله المعروفة منها وغير المعروفة، وطبع بالسليقة خائن ومتآمر وعميل، وقد وجد أخيرًا القوة الشيطانية التي تستغله وتقوده وتركبه وتُحقق به ما تشاء؟

كيف رأيت المبادرة؟

لقد سمعت وقرأت تخريجات كثيرة لهذا الذي فعله السادات، وبالذات أيام مبادرة القدس، فرغم كل شيء كان السادات حتى ذلك الوقت قد حارَب إسرائيل فعلًا، وإن كان ما أحاط بتلك الحرب المحدودة، والمُتحكَّم سلفًا في حجمها ونتائجها، رغم أن ما أحاط بتلك الحرب من علامات استفهام وتعجُّب وأقاويل كانت كثيرة، إلا أن أحدًا حتى ذلك الوقت لم يكن ليتصوَّر مطلقًا، مهما جمح به الخيال أو حتى فقد العقل وجُن، أن «مبادرة» القدس لم تكن مبادرةً تلقائية كما تصوَّرنا جميعًا.

أنا شخصيًّا حتى ذلك الوقت، وحين فعلها السادات وذهب إلى القدس قدَّرت أن الرجل الخبيث فيه؛ ذلك الذي جعلني أنفر منه بعد تعاملي معه حيث كان عضو مجلس قيادة الثورة المُكلَّف بإصدار جريدة الجمهورية لتُبشِّر بالميادين الثورية الجديدة، وتخلق صحافةً ثوريةً جديدة تحلُّ محل الصحافة التي كان يملك ويُدير سياستها عقليات مُتمصرة تعاونت تمامًا مع الإنجليز، وكانت دائمًا مع الملك ضد الشعب، حتى الصحف المصرية التي أصدرها مصريون — فيما خلا صحف حزب الوفد — كانت تلك الصحف كأخبار اليوم والقاهرة والجريدة المسائية سائرة أيضًا، وبتكتيك أحدث وأرقى وأكثر جاذبية، في نفس خط تأييد وتأليه الملك، والنيل من الوفد، والدعاية لمشاريع المعاهدات التي كان يريد الإنجليز فرضها على مصر، بمعنًى آخر، حين أرادت ثورة ٢٣ يوليو أن تخلق صحافة مصرية الدم واللحم والثورة عهدت لأنور السادات المهمة، وعرفته أنا والكثيرون غيري أثناء عملنا معه في جريدة الجمهورية عام ١٩٥٨م، ولكني آثرت الابتعاد عنه تمامًا بعد عام فقط؛ فقد قبلت أن أعمل معه إيمانًا مني بأعظم أحداث حياتي، قيام ثورة حقيقية في مصر أخيرًا، ثورة وإن بدأت عسكرية كالانقلابات السورية إلا أن الحركة الوطنية المصرية ظلت تُحوِّر فيها وتُغيِّرها حتى جاء الامتحان النهائي في تأميم قناة السويس والعُدوان الثلاثي على مصر. الثورة

عام ٥٦، هنا فقط بدأت مصر الشعب والمُثقَّفين تقبل وتتحمَّس وتندفع بقوةٍ واضعةً نفسها تحت تصرف الثورة وقادتها، من خلال هذا المنظار كنت أرى في السادات «بطلًا» من أبطال ثورة يوليو، ولكن التعامل معه كشف لي — كما سنرى — أنه لا بطل ولا يحزنون، بل إن كثيرًا من خِصاله لا تصلح أن تكون لرجلٍ عادي بسيط، فما بالك بعضو مجلس قيادة ثورة وبطل ثورة؟ وهكذا قطعت — منذ ذلك الحين البعيد عام ١٩٥٩م وبعد عامٍ واحد فقط من معرفته — صلتي به.

أعتذر أني أقحمت نفسي على الموضوع، ولكني أريد أن أعود فأقول إنني تصوَّرت حين قام السادات بمبادرة القدس بتلك الطريقة المفاجئة، تصوَّرت مع كثيرين غيري أن المعجزة قد تمَّت، وأن الرجل الذي أخذنا عليه المآخذ في حرب ٧٣ وفي أحداث ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧م، وفي طريقة حكمه كلها، وفي سياسته الداخلية والخارجية بالذات، وتعدِّيه خط الخطر في اقترابه بالسياسة المصرية من الخط الأمريكي، تصوَّرت أن الخبث الكامن في الرجل بدأ يعمل لصالح القضية، وأن مبادرة القدس لا يمكن أن تكون قد حدثت مصادفة، وأن لا بد وراءها اتفاق كامل وصل إليه السادات مع الإسرائيليين باتفاق مع الأمريكيين، وجعلهم يُقرُّون ويعترفون أخيرًا بحق الشعب الفلسطيني في وطنٍ مستقلٍّ كامل على أرض فلسطين، بل وحق الذين طردوا أو هاجروا من فلسطين المحتلة في العودة أو التعويض، وكذلك إعادة كل الأرض العربية التي احتُلَّت عام ٦٧؛ الجولان والضفة وغزة وسيناء والقدس الشرقية.

تصوَّرت هذا كله، وعلى أسوأ الفروض تصوَّرت شيئًا آخر؛ أن تكون هذه المبادرة قد تمَّت بالاتفاق مع سوريا والأردن والسعودية وبقية دول المواجهة بهدف تغيير صورة القضية في نظر الرأي العام العالمي، تغيير الصورة من دولةٍ مسكينة قليلة العدد اسمها إسرائيل تعيش كالجزيرة المُسالِمة المُحاطة بكراهية شعب عربي يريد تمزيقها إربًا وإغراقها وطمس وجودها تمامًا، تغيير الصورة بحيث يرى العالم عيانًا جهارًا أن مصر، أكبر وأقوى الدول العربية، يذهب رئيسها بنفسه ليعرض على الإسرائيليين السلام الدائم والاعتراف بهم وبدولتهم وبحدودهم مُقابل رد الحقوق والأرض العربية والفلسطينية المغتصَبة؛ وبهذا تسقط حجة إسرائيل التي تتذرَّع بها دائمًا في شنِّ حروبها على العرب بحيث تعتدي على الأرض والجيوش والناس الأبرياء، وفي نفس الوقت يؤيِّدها الرأي العالمي في عُدوانها ذاك ويجد لها المُبرِّر والعذر.

تصوَّرت أن مبادرة كتلك حركةٌ جِدُّ خبيثة مُحصِّلتها في النهاية، إذا صح التحليل، ستكون واحدةً من أعظم الخطوات الوطنية في تاريخنا الحديث؛ فإذا كان السادات والقادة

العرب الآخرون قد رأوا أن قرارات مجلس الأمن لم تُفلِح في ثني إسرائيل عن خططها التوسعي الاستيطاني الرافض تمامًا لأي حق عربي أو فلسطيني، فإن الوسيلة الوحيدة الباقية أمام العرب هي الحرب مرةً أخرى، وعلى نسق ما حدث في ٧٣ من تعاون سوري مصري مدعومًا من السعودية والعراق والجزائر وليبيا، ومُتجنِّبة كل أخطاء حرب ٧٣ بحيث لا تحدث هذه المرة ثغرة أو تتوقف الحرب عند خط هو المثالي لإعطاء إسرائيل الفرصة لردِّ الضربة الأولى، ليس فقط باسترداد ما فقدته من أرض (أرضنا)، وإنما باجتياح مناطق شاسعة أخرى جديدة.

وسألت صحفيًّا من عُمَد مؤيدي السادات، عشيةَ عودتهم من القدس، عما دار خلف الستار هناك، وبُهرت فعلًا وهو يؤكد لي أن كل شيء قد تمَّ وفق ما نريد تمامًا، وأن ما تحقَّق من اتفاقات تعدَّى كل ما كنا نحلم به من نهايةٍ مُنتصرة لصراعنا المرير مع إسرائيل، وعلى رأسه عودة فلسطين الدولة والعلم والاعتراف.

وهكذا، مثل كثيرين غيري، كتبت أؤيد المبادرة في مقالٍ قصير نشرته بالأهرام، ولكني بحذرٍ شديد فعلت حتى أحفظ لنفسي خط الرجعة؛ فشيءٌ ما كان يُوسوس إليَّ أن الإسرائيليين، بالذات بيجن، لا يمكن أن يكونوا بمثل ذلك الحسن للنية، وأن هكذا ببساطة يُسلِّمون كل ما في أيديهم من أوراق، ولكني أعود وأردُّ على الوساوس وأقول لنفسي: إنه الأثر المُباغِت للمبادرة؛ ذلك الذي على مستوى الشعب الإسرائيلي قد حظي بقَبول وحماس جعل الشعب هناك، ذلك الذي يموت شبابه وتدفع أمهاته ضريبة سياسات حكوماته المُتتالية التوسعية، حماس الشعب هناك للسلام، فرض إرادة السلام، وأرغم بيجن على التخلِّي عن طبيعته ذاتها وليس فقط عن أحلامه وطموحاته.

لماذا كفرت بها؟

ورغم أن إيماني بالمبادرة لم يستغرق إلا شهرًا واحدًا، ذلك الذي مضى بين المبادرة وبين اجتماعات مينا هاوس المشهورة التي، ويا للعَجب، دُعيت لحضورها منظمة التحرير كمُمثِّل وحيد شرعي للشعب الفلسطيني، مُعترَف به من قِبل إسرائيل وأمريكا بحكم قبولها توجيه الدعوة لها والجلوس مع وفدها الرسمي على مائدة مفاوضات واحدة، ودُعيت إليها سوريا، ولا أذكر إن كانت الأردن قد وُجهت إليها دعوة هي الأخرى.

شهر واحد فقط أو أكثر قليلًا بين تصوراتي المتفائلة تمامًا للمبادرة ونتيجتها، وبين خطبة «بن أليسار» مدير مكتب بيجن، خطبته الافتتاحية التي كشفت، ومنذ كلماته الأولى، وكما يغمر الضوء الباهر ليلًا بأكمله من الظلام، تلك الكلمات التي ذكر فيها أنه سعيد جدًّا بالحضور إلى القاهرة باعتبار أنها حقَّقت له شخصيًّا أمنية (وهي رؤية الأهرام التي كان دارجًا في أحاديث بيجن وتصريحات كثير من كتلة ليكود والأحزاب الدينية الأخرى، كان دارجًا قولهم إن أجدادهم اليهود هم الذين بنَوها؛ ولذلك فهي تُعتبر أثرًا للحضارة اليهودية القديمة يجب أن يُزار)، حقَّقت له هدفًا شخصيًّا، وحقَّقت للشعب الإسرائيلي حُلمًا باعتبار أننا جيران (أي مصر وإسرائيل أو اليهود) لأكثر من ثلاثة آلاف عام.

لم أسمع بقية خطابه؛ فقد توقَّفت عن السمع، بل وعن رؤيا ما تنقله كاميرات التليفزيون التي كنت أُتابع الاجتماع من خلالها.

توقَّفَت حواسي كلها كأنني أُصبت بضربةٍ مُباغِتة على أم رأسي.

فقد اكتشفت أن مبادرة القدس، وهذا الاجتماع المعقود بجوار الأهرام، وأن ما سوف ينتج عنه ويتلوه، ليست مبادرات مصرية في اتجاه الحق العربي أو حتى المصري، وإنما هي في الحقيقة مبادرات لمصلحة إسرائيل وحدها، هي مبادراتٌ إسرائيلية بدأت بها إسرائيل،

وليس السادات، عصرًا جديدًا في صراعها مع العرب، ألا وهو عصر التوغُّل واللعب داخل المعسكر العربي ذاته.

وكان الاكتشاف من البشاعة بحيث إني وجدت أن حماسي للمبادرة — أنا الذي وهبت زهرة شبابي أُعادي الصهيونية التوسعية الإسرائيلية — يدل على خطورة العقول التي دبَّرتها ونفَّذتها، يدل على أننا استهنَّا كثيرًا بتفكير أعدائنا، وأننا كمجموعة أطفال يُحاربون أُناسًا جاءوا إلى الأرض — كما تقول أفلام الخرافات العلمية — من عوالم فلكية مُتقدمة.

وحين بدأت أعود إلى حواسي، أو تعود إليَّ حواسي، وجدت أن المسائل أعمق وأخطر بكثير من صيحة حماس هنا أو مقال تحذير هناك. المسائل في حاجة لوقفةٍ طويلة أمام الـ Master mind أو «العقل السيد» الذي يُحاربنا ويلعب بنا، في حاجة لعودةٍ ثانية لكل ما دار في المنطقة منذ الصدام الأردني الفلسطيني الرهيب في سبتمبر ٧٠، وموت عبد الناصر المُفاجئ، وتعيين السادات بالذات نائبًا وحيدًا له قُبَيل موته بقليل، ثم انقلاب ١٥ مايو والسهولة التي تمَّ بها، والتحالف مع ليبيا والسودان، بل وتدخُّل مصر عسكريًّا لإحباط الانقلاب الذي حدث ضد نميري، ثم طرد الخبراء السوفييت؛ وأنت يا أيها العبقري مُقبِل على حرب مع إسرائيل. وتلك الحرب نفسها حرب ٧٣.

ثغرة الدفرسوار

لقد زرت من عامَين المكان الذي عبَر منه الجيش الشاروني الإسرائيلي القناة من شرقها إلى غربها ليصنع ما سمَّاه السادات «الثغرة التليفزيونية»، وهالني الأمر تمامًا؛ فالقناة عند ذلك المكان الذي أُقيمَ فيه جسرٌ بَريٌّ مُسفلَت في ٢٤ ساعة فقط، ذلك المكان أوسع كثيرًا من عرض النيل الذي أُقيمَ عنده السدُّ العالي؛ ذلك السدُّ الذي استغرقت إقامته سنوات، كيف يتسنَّى لمجاميع قليلة من جيش مُتسلِّل محصور بين جيشنا الرهيب الثاني وجيشنا الثالث، كيف يتسنَّى لتلك المجاميع أن تسدَّ القناة الأعمق من نيل أسوان، والأعرض من مكان السد العالي، في ظرف أيام معدودة؟ إنها كذبةٌ كُبرى، إني أطلب وأُلِحُّ أن تتشكَّل لجنةٌ عسكرية هندسية من الجيش المصري لتُقدِّر كمَّ العمل اللازم لإقامة طريق بَري مُسفلَت طوله كيلومتر على الأقل، وبقاعدة لا يمكن أن تقلَّ عن خمسين مترًا، وارتفاع لا يقلُّ ابتداءً من قاع القناة إلى مستوى الطريق المُسفلَت على ضفتها، ارتفاع لا يقلُّ بأي حال عن عمق القناة زائد عشرة أمتار بأقل تقدير من سطح الماء إلى سطح الأرض؛ أي حوالَي ثلاثين مترًا ارتفاعًا.

إني مُتأكِّد أن أي طالب هندسة أو حتى أي مُقاوِل صغير إذا رأى المكان وعرف أبعاده، لا يمكن إلا أن يُؤكِّد أنه عمل لا بد يستغرق شهورًا طويلة في ظل وفرة من الأيدي العاملة، وفي ظروف سلام تام مُواتية، أما أن يقول الإسرائيليون أو يقول بعض المُختارين من المصريين إنه عمل قد تمَّ خلال ٤٨ ساعة على الأكثر، فهذا هو الكذب بعينه، أو بالأصح هو التمويه المُراد به خداع شعبنا عن حقيقة لا بد لمن يرى المكان أن يُدركها عن يقين؛ حقيقة أن قناة السويس في ذلك الجزء عند «الدفرسوار» كانت مسدودةً فعلًا بكُتلٍ خرسانية، وأنه عملٌ استغرق وقتًا طويلًا ليَحدث، وأنه تم إما بتكتيك عسكري لا نعرف

بالضبط كنهه بحيث أبعد أنظار جيشنا عن تلك البقعة بالذات، أو كثَّف المِدفعية في تلك البقعة أثناء حرب الاستنزاف بحيث أصبح الاقتراب منها مُستحيلًا، وإما — وهذا هو الشيء المُخيف فعلًا — أن يكون هذا السد قد أُقيمَ بعلم السلطات المصرية.[١] ولأن هذه مسألةٌ مستحيلة الحدوث بغير اتفاق مع الإسرائيليين ليسمحوا بإقامة سد قد يُتخذ مَعبرًا في أي وقت للجيش المصري، وهو أمرٌ مُستحيل التصديق، فإن المسألة تُشكِّل لغزًا لا بد أن يُحَل،

[١] واضحٌ أن المقصود هو السلطات الساداتية وليس الجيش المصري كما روَّج الغوغائيون، وكما ردَّ عليهم السيد حافظ إسماعيل مستشار الأمن القومي أثناء حرب ٧٣، وما يمكن أن يُعتبر وثيقةً مُلحَقة من الرجل العسكري السياسي الأول في نفس الفترة التي حدثت فيها الثغرة. وواضح أيضًا أنه ليس في إقامة الثغرة أي طعن في بطولة الجيش المصري وأدائه وشهدائه؛ فها هنا مذكور بالنص أنها صُنعت لكي تكون الخنجر الذي يُصوَّب إلى ظهر الجيش المصري المنتصِر؛ خنجر يطعن بطولته الرائعة وتضحياته الجسيمة، ويُمهِّد السبيل إلى احتلال إسرائيل لغرب القناة وانتشارها في محافظة الشرقية، والوصول إلى وادي حوف ومشارف القاهرة لكي يصبح التفاوض في الخيمة «١٠١» مُبرَّرًا للشعب المصري، وما يُقدِّمه الجانب المصري من تنازلات في مُقابل «جلاء» الجيش الإسرائيلي عن الأرض المصرية مسألةٌ معقولة. إن الثغرة هي التي أجهضت انتصار حرب ٧٣ المقدَّسة، وصانع الثغرة ليس هو الجيش بطبيعة الحال، ولكنها القيادة السياسية للحرب؛ أي السادات ومُعاونوه هم الذين، كما قال هيكل في ردِّه على حافظ إسماعيل، خذلوا السلاح، وخذلوا الرجال، وخذلوا البطولة والشهداء.

أما أن تكون الحسابات التي أوردتها هنا لحجم العمل في الثغرة والوقت الذي أُقيمت فيه ليست هي بالضبط التواريخ أو مكعبات الأمتار المضبوطة، فلا يمكن للتجاوز في بضعة أمتار أو ساعات أن يُقلل من حجم العمل الضخم الذي تم في وقت قصير لا يمكن أن يُصدَّق.

بل إن السيد حافظ إسماعيل قد ذكر أن حدوث الثغرة كان مسألةً معروفة سلفًا لقُوَّاد الجيش المصري، وأن اللواء ٢٥ المدرع قد دُرِّب على إبادة أي رأس جسر يضعه الإسرائيليون تمهيدًا لعبور القناة من الشرق إلى الغرب، وأن هذا اللواء المدرع نفسه قد أدَّى مناورات وصلت إلى أن تكون بالذخيرة الحيَّة، ودُرِّبت تمامًا على عملية تصفية أي جسر للثغرة. ولكن التآمر واضح في أن هذه الفِرقة نفسها المفروض أن تُدافِع عن الجانب الغربي للقناة، والمفروض أن تُشكِّل الاحتياطي الاستراتيجي للدفاع عن الأرض المصرية الأم نفسها في حالة وقوع هجوم مُضاد، قد أمرها السادات بالعبور شرقًا. وحين بدأ الإسرائيليون في عمل رأس جسر طلبَ الفريق الشاذلي من السادات إعادة الفِرقة لتؤدِّي واجبها المقدس في إبادة الثغرة، ولكن السادات اعتذر بأنه يريد معاونة سوريا، ورفض عودة الفرقة؛ فكانت النتيجة أن الدبَّابات الأربع أو الست الأولى التي عبرت أصبحت بعد ٤٨ ساعة فقط أربعمائة دبَّابة، وأيضًا دون أن يُوافق السادات على عودة الفِرقة للتصدي للهجمة على الأرض المصرية الأم. وكانت النتيجة ما هو معروف من انتشار الثغرة «التليفزيونية من فضلك» جنوبًا حتى مدينة السويس، وحصار الجيش الثالث تمامًا وشله ومنع المؤن والذخيرة والماء عن أخطر جيوش مصر وحصاره في سيناء، بينما العدو يحتل منطقة القناة بأسرها، لولا إيقاف القتال.

فقط لم يتنبَّه له الرأي العام إلى الآن، ولكن لا حقيقة هناك مُختفية إلى الأبد، ولا بد لشعبنا يومًا أن يعرف كيف أن سدًّا كهذا قد أُقيمَ ليكون الخنجر الذي يُسدَّد إلى ظهر جيشه في اللحظة المناسبة؛ خنجر خفي كان باقيًا، لكي يصبح سدًّا كاملًا وطريقًا «مُسفلَتًا»، وضعُ الطبقة الأخيرة فقط من كُتَل الخرسانة، وهو عمل فعلًا من الممكن إنجازه بكمٍّ هائل من الآليات والأوناش في ظرف ٤٨ ساعة. وهنا أيضًا لا يملك أي إنسان لديه أي ذرة من القدرة على التفكير، لا يملك إلا أن يتساءل: كيف استطاع شارون بقواته الصغيرة أن يستجلب — لا بد من إسرائيل نفسها — هذا الكم من الأوناش واللوريات والمعَدات الآلية، يستجلبها من إسرائيل ويصنع بها السد في أقل من ٢٤ ساعة من قراره أن «يعبر» القناة؟ وفي ظل حرب طاحنة.

أما إذا لم يكن قد استجلبها، وأنها كانت طوال الوقت هناك، فإن هذه تكون قمة المأساة الضاحكة؛ إذ معناها أن شارون، أو الجيش الإسرائيلي، كان يعرف أن حرب ٧٣ كانت ستقوم، وأن الجيشَين المصريَّين الثاني والثالث سيَعبران القناة بنجاح، وأن الردَّ على هذا العبور يكون من خلال هذا السد.

لقد أطلتُ في تأمُّلي لحكاية الثغرة، أو بالأدق لحكاية عمل الجسر البرِّي عبر القناة؛ لأنني لست عسكريًّا من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى لأن أي زائر للمكان وأي عابر سبيل وأي صبي في مدرسة ثانوية يرى منطقة الدفرسوار، ويتصوَّر إقامة سد عليها طوله كيلومتر في ظرف ٤٨ ساعة، لن يتمالك نفسه، وسيُقسِم بأغلظ الأيمان إن هذا مُستحيل تمامًا، وإن ثَمة مؤامرةً كبرى — مؤامرة ضد الجيش وانتصاره تمهيدًا لفرض الاستسلام عليه — وراء سد الدفرسوار، إن كنَّا لا نعرف عنها الكثير اليوم، فسنعرف وحتمًا كل شيء غدًا.

أقول أطلتُ لأن سد الدفرسوار يُشكِّل بالنسبة لعلامات الاستفهام التي طرحتها مُتسائلًا أو مُراجعًا للأحداث التي دارت في منطقتنا منذ سبتمبر ١٩٧٠م إلى الآن، يُشكِّل دليلًا من الممكن أن تراه (أي العين) دليل إثبات واضح لا يمكن دحضه، يُشكِّل شيئًا كجسد الجريمة في لغة القانون، وهو هناك قائمٌ وموجود، وباستطاعتك أنت نفسك، لو شئت، أن تراه، وأن تبني حكمك دون أي حاجة لإعمال ذكاء كثير.

والمسألة لا تزال محل تساؤل كبير، وها أنا ذا في المقالات «البحث عن السادات» أُطالب جيشنا المصري البطل بتكوين لجنة تقصِّي حقائق منه حول الثغرة، وكيف حدثت، وكم العمل اللازم لإقامتها، وكيف أقيمت، وكيف تمَّت ونجحت؟

هل هي مجرد مصادفات؟

أعود إلى مراجعة ما حدث منذ وفاة عبد الناصر المُفاجئة في سبتمبر ١٩٧٠م بعد اختياره، وبلا مقدِّمات أيضًا، بل بعد غضبة على السادات شديدة الوطأة جعلته يعتكف في بيته ويقول إنه أُصيبَ بنوبةٍ قلبية، بعد اختياره نائبًا أوحد لرئيس الجمهورية،[١] وانقلاب ١٥ مايو الذي أطاح بكل ما تبقَّى من رجال عبد الناصر وسياسته، ودخول مصر في طورٍ جديد. ولأن الشعب كان قد انتهى بمظاهرات وأحداث ٧٢ إلى أنه من المستحيل إقامة أي سلام مع إسرائيل إلا بعد حرب معها تُعيد له، حتى ولو لم تعد الأرض، تُعِيد له على الأقل، وبالتالي للعرب أجمعين، احترامهم لأنفسهم؛ وبهذا تُتيح لخطة من يريد إخضاع المنطقة بأسرها للسياسة الأمريكو-إسرائيلية، أن تمضي قُدمًا، وكأنها تطبيقًا لتكتيك لينين خطوةٌ إلى الخلف لتقفز خطوتَين إلى الأمام.

ولكن حرب ٧٣ أدَّت، ليس إلى خطوتَين فقط، وإنما لمكاسب لإسرائيل والولايات المتحدة لم يكن أشدُّ المُتفائلين يحلم بها.

وخطوةً خطوة مضت الخطة الجهنمية تُحقِّق النجاح تِلو النجاح.

وهنا يقفز سؤالٌ هام، أهم سؤال في الحقيقة: أهي محض مصادفة أن يلي قيادةَ مصر شخصٌ كالسادات؟ مصر التي كانت تقود الكفاح العربي في ذلك الوقت، بمعنى أن يكون قائد المعسكر العربي كله رجلًا أفصح ما يقوله تعليقًا على أي شيء: «صح.» رجل خارج

---

[١] الظروف التي أحاطت باختيار السادات نائبًا أوحد لرئيس الجمهورية لا تزال منطقةً مُظلِمة في تاريخ مصر، لم يتطوَّع بإجلائها من عاصروا الفترة، ومدى تدخل المرحوم الملك فيصل والاستخبارات الأمريكية في هذا التعيين، فليتكلم الساكتون عن الحق، الشياطين الخُرس.

قدرته على الغدر، لا يوجد لديه بارقة ذكاء أو لماحية واحدة، رجل بدأ تاريخه «الوطني» بالتجسُّس لحساب الألمان، وانضمَّ لمجموعةٍ إرهابية خرج من قضيَّته معهم كالشعرة من العجين، وما كاد يُفصَل من الجيش ويُعاني بعض الشيء حتى هُرِع يُسلِّم نفسه ليوسف رشاد يعمل معه في الحرس الحديدي الذي أنشأه ذلك الطبيب الملكي الهُمام ليُحارِب الضباط الوطنيين ويغتالهم لحساب الملك. ومن الغريب أيضًا أني شهدت — وأنا أعمل طبيب امتياز عقب تخرُّجي من كلية طب قصر العيني — طرفًا من تاريخ الحرس الحديدي حين أطلق أناس من ذلك الحرس النار على الضابط عبد القادر طه (شقيق نائب مجلس الشعب السابق والمعروف باتجاهاته الوطنية التقدمية أحمد طه)، شهدت وكنت الشاهد الوحيد في القضية، وبناءً على شهادتي وحدها؛ إذ كان عبد القادر طه قُبَيل موته الذي نتج عن خمس رَصاصات أُطلقت عليه من الخلف ومن الأمام واخترقت جميعها صدره، ولولا قوته الجسمانية الخارقة لمات في الحال، لحسن الحظ أحضروه إلى قصر العيني وهو في بداية حالة الصدمة، وحاولنا ما استطعنا أن نُعالجه ليتغلَّب على الصدمة، وتُجرى له جِراحة كبرى نستخرج فيها الرصاصات الباقية، ولكن لم يكن هناك ثَمة أمل على الإطلاق، ومات عبد القادر طه، وحين أدركت أنه قاب قوسَين أو أدنى طلبت منه أن يذكُر أسماء من اغتالوه؛ إذ كنت قد أدركت أنه لا يريد أن يتَّهم أحدًا وكأنه خائف تمامًا من غرمائه، وحين عرف منِّي أن الأمل في حياته يتلاشى ذكر لي صراحةً اسم شخص (علي حسنين) هو الذي اصطحبه إلى كمين في المنيل، وذكر أيضًا اسم أنور السادات. وحاولت أن أستفسر أكثر ولكن المنيَّة لم تُمهِله.

رجل أصبح واضحًا الآن أن مجلس قيادة الثورة كان يُعارِض انضمامه للضباط الأحرار؛ لأن الجيش كله كان يعرف أنه من رجال يوسف رشاد، وأن عبد الناصر ضمَّه في اعتقادي ليكون عينًا له على تحركات الحرس الحديدي ويوسف رشاد؛ ولهذا اختاره عبد الناصر ليُذيع البيان الأول للثورة حتى «يُخدِّر» الملك والحاشية، ويجعلهم يعتقدون أن رجلهم هو الذي يُذيع البيان، وأنها لهذا لا بد أن تكون ثورة موالين، أو على حدِّ تعبير حيدر باشا قائد الجيش «زوبعة في فنجان».

رجل كهذا وأكثر بكثير من هذا، فليس هنا مجال استعراض تاريخه كله، وليرجع من يشاء إلى مرافعة الأستاذ عبد الحليم رمضان مُحامي خالد الإسلامبولي؛ ففيها أشياء في حياة السادات الشخصية تشيب لهولها الوِلدان.

ولكن الذي يهمُّنا هنا هو أن السادات، أو شخصًا كالسادات، هو الذي كان على رأس المعسكر العربي عشيَّةَ حرب أكتوبر.

والسؤال الذي أُعاوده مرةً أخرى: أهي صدفةٌ محضة أن يكون في هذا الموقع الخطير شخص كالسادات، وفي مقابله من؟ كيسنجر من ناحية وبيجن والمُتطرفين والليكود من ناحيةٍ أخرى؟

الغباء أمام عبقرية التعصب

أصدفةٌ أن يتزامن مجيء السادات مع مجيء كيسنجر مع مجيء بيجن بحيث تتم المهزلة الكبرى؟

الغباء الأكبر في مواجهة الذكاء الأعظم والتعصُّب العنصري الأعمى مُجتمعين، أو لتكون المعادلة دقيقةً نضعها هكذا:

إنسانٌ مُتعاوِن متَّفق لحدِّ التفريط بلا أي مُقابل (راجعوا ما قاله كيسنجر عن طرد الخبراء السوفييت، الذي كانت الولايات المتحدة مستعدَّة أن تدفع ثمنه جلاءً كاملًا غير مشروط عن سيناء على أقل القليل)؛ إنسان كهذا في مُقابل أعظم عقلية اكتشفتها الرأسمالية الأمريكية لتنقل أمريكا من مرحلة الدولة العظمى القوية إلى مرحلة الدولة الأعظم الوحيدة المُهيمنة على العالم كله، المُحاصِرة للكتلة الاشتراكية تمامًا تمهيدًا للانقضاض عليها أو اختراقها؛ وبهذا يصبح العالم كله في قبضة أمريكا.

أما أن يلحق بيجن بعقلية كهذه، فهذا أيضًا ليس مصادفة أو عدم ثقة في كفاءة كيسنجر، إنما ربطٌ تامٌّ بين الذكاء والولاء، بين اليهودي الأمريكي العبقري في هندساته الاستراتيجية والتكتيكية وبين اليهودي الإسرائيلي المجنون إلى حدِّ الهوس بالتوراتية والعنصرية اليهودية؛ أي الإيمان المطلق الذي لا يمكن أن ينكص أو يتغيَّر؛ فذكاء كذاك لا بد له ليصبح ذا فاعلية من تعصُّب شرير يُشكِّل نقطة انطلاقه ويحكم توجيهه، وهو في النهاية تحقيق نهائي للحُلم الذي داعَب الصهيونية كثيرًا وطويلًا؛ حكم العالم عن طريق التحكم في أقوى دولة يستطيعون بها أن يحكموا العالم. هكذا حاولوا مع إنجلترا حين كانت القوة المُهيمنة، ثم مع ألمانيا حين تصوَّروا أنها ستَخلفها، ولكن حين هُزمت وقام هتلر لينسب الهزيمة لهم وينقضَّ عليهم أدركوا أن القوة العظمى القادمة ستكون إما روسيا الشيوعية أو أمريكا الرأسمالية، وإلى الدولتَين تسلَّلوا، وأصبح اليهود في العالم أكبر

دعاة الشيوعية من ناحية وأعتى أصحاب البنوك والمُسيطِرين على الفن والفكر والكتاب ووسائل الإعلام في المعسكر الرأسمالي كله من ناحيةٍ أخرى. وحين تكشَّفت النوايا تمامًا، وبدأ المعسكر الشرقي ينحاز إلى العرب، أصبح الطريق الأوحد هو السيطرة التامة على أمريكا، وتقويتها إلى درجة تستطيع معها أن تقهر العالم الثالث كله والعرب ومعسكر عدم الانحياز، ثم التهام المعسكر الاشتراكي نفسه أخيرًا.

الدين الجديد

ولقد كتبت أكثر من مرة أن الدين الأمريكي الجديد أو المسيحية اليهودية أو اليهودية المسيحية، ويُسمُّونها Judo-Christianity، هو النخاع الشوكي الفكري لأمريكا الرأسمالية مثلما كانت البروتستنتية أو الكاثوليكية هي النخاع الشوكي العقائدي للإمبراطورية البريطانية أو للإمبراطورية الفاتيكانية في الزمن الوسيط. كل إمبراطورية لا بد أن يكون لها نواة عقائدية ما. ولقد نجح اليهود والمهاجرون لأمريكا، وحتى الباقون في إنجلترا وفرنسا وأوروبا، أن يظلُّوا يُمطرون البروتستنتية بالذات بوابل من النقد المُغرِض الهادف لخلق إحساس بالذنب قِبَل اليهود، إحساس رهيب بالذنب من المسيحيين كلهم، إلى حد إجبار البابا الكاثوليكي إلى إصدار تكذيب لما جاء في الإنجيل عن أن اليهود هم الذين صلبوا المسيح. ولو أن هذا ليس موضوعنا الأساسي إلا أن المُتتبِّع للأسلوب الفريد الرهيب الذي استطاع به اليهود، وبطريقةٍ غير ملموسة تمامًا، إدخال اليهودية كجزء من العقيدة المسيحية أولًا، ثم الدفع في هذا الاتجاه إلى حد الإيمان بأنهما ليستا عقيدتين مُنفصلتين، وإنما هما عقيدةٌ واحدة متصلة، بحيث بدلًا من كلمة التوراة وكلمة الإنجيل أصبحا كتابًا واحدًا؛ التوراة فيه هي العهد القديم، والإنجيل فيه هو العهد الجديد.

في تلك المرحلة التي وصلت فيها العقيدة اليهودية المسيحية قمَّتها المُوحَّدة، وأصبحت تُشكِّل عقل أمريكا وقلبها، كان طبيعيًّا جدًّا أن يُعيَّن وزير الخارجية لأول مرة في التاريخ الأمريكي يهوديًّا، ليس هذا فقط، بل يُتجاوز عن شرط أن يكون مولودًا في أمريكا أو من أبوَين أمريكيين، ويحدث هذا دون أي اعتراض علني من رجال الكنيسة البروتستينية الأمريكية، مع أن تلك الكنيسة كانت من التعصب بحيث تعتبر أن كل من ليس بروتستينيًّا أمريكيًّا هو مُواطن من الدرجة الثانية؛ وبالتالي أيضًا لم يعترض الكاثوليك الأمريكان باعتبار أن الكاثوليك أقليَّة في أمريكا، يعني أمريكا كلها، وافقت ورحَّبت بتعيين هذا المهاجر

اليهودي الألماني، ليس فقط وزيرًا لخارجية أمريكا، أي في المنصب المقابل لرئيس الوزراء في الدول الأخرة، بل «يتصادف» أيضًا، وبالضبط بعد إتمام هذا التعيين، أن تُكتشف وتُروَّج فضيحة «ووتر جيت» بحيث تشلُّ فاعلية الرئيس الأمريكي نيكسون، ويصبح كيسنجر وحده الرجل الحقيقي الأول في الولايات المتحدة.

تسلسل الأحداث المتصادفات

ولنرقب الأحداث من جديد.

- بعد حرب أكتوبر تسقط جولدا مائير ويأتي بيجن.
- ويأتي بعد إتمام ترتيب البيت المصري وإخلائه تمامًا من الاتجاهات الناصرية، وإعادته لرأسمالية ما قبل الثورة، وإكساب السادات هالة مجد تُتيح له شعبية واسعة بعد «انتصاره» في حرب أكتوبر.
- شعبية لا بد منها لتنفيذ الخطوات القادمة من المؤامرة الكبرى.
- وفي نفس الوقت تتوتَّر العلاقات بين أمريكا والاتحاد السوفييتي، ويجيء مستشار الأمن القومي الجديد ليُحقِّق ما يُشبِه المعجزة للشعب الأمريكي؛ يُنهي حرب فيتنام من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى يُحقِّق ما يُشبِه الحُلم، ليس فقط بتوسيع بحر السم والدم الذي أصبح يفصل الصين عن روسيا، بل يا لروعة هذا في نظر الأمريكي العادي «ضم» الصين إلى المعسكر الأمريكي واحتوائها تمامًا.

شعبية هائلة نالها ذلك الرجل بحيث أنست الأمريكان من هو، ومن يكون؛ فالمهم أن الأسطورة بدأت، وتكفَّلت آلة الإعلام الجهنمية الخاضعة تمامًا لـ «اللُّوبي» اليهودي بتصوير كيسنجر وكأنه أينشتين السياسة، فعلًا أوصلوه إلى مرتبة أينشتين الذي من شدة عبقريته لا يقف أحد طويلًا أمام كونه يهوديًّا. وهكذا وجد كيسنجر وأوجدوا له البساط الأحمر المحاط بالقلوب وبأساطير العلاقات النسائية (التي تجعله موضع إعجاب الرجال والنساء على وجهٍ خاص)، أشياء من الممكن أن تجعل الإنسان يكتب كتابًا عن «صناعة العباقرة» مثلما كتب أحدهم كتابًا عن «صناعة الرؤساء» في أمريكا.

- السادات أصبح شعبيًّا.
- وكيسنجر أصبح رئيس الوزراء شعبيًّا وعبقريًّا جدًّا، وقادرًا على تحقيق المعجزات.

- وغير مهم أبدًا أن تُضفي على بيجن هالة العبقرية أو الشعبية.

فاليهود يستعملون هذه الأشياء لخداع الآخرين، أما هم أنفسهم فيكفيهم ممن يرأسهم أن يعمل دائمًا وأبدًا بمبادئهم، ويُحقِّق أهدافهم ومصالحهم، ولو بلغ بإيمانه هذا حد اتهامه بالتعصب والجنون، فمن أناس يُولدون التعصب ويرضعون التعصب ويضعون أنفسهم فوق كافة الجنس البشري، يصبح التعصب عند رئيسهم مِيزة وتفردًا، يصبح شيئًا مطلوبًا ومرغوبًا ومُستحبًّا، خاصة حين يبدأ يُملي على الآخرين رغباته «النابعة من رغبات شعبه» المُتعصِّبة للحق اليهودي «المُقدَّس»؛ ذلك التعصب «الجميل» الأعمى.

القدس هي العاصمة المُوحَّدة المُقدَّسة لإسرائيل، فرمان يُصدره الملك بيجن وبالقوة الساحرة الأكثر مفعولًا من كل قدرات سليمان وجنوده، تصبح القدس هكذا وعلنًا وأمام العالم كله. ضم يا ولد الجولان، تنضم الجولان. اضرب المفاعل في العراق واخرق ما شئت أجواء سوريا والأردن والسعودية، ينضرب المفاعل. هات السادات إلى القدس، يجيء السادات. اجعله هو الذي يركع ويطلب العفو والسلام، يتم هذا ويتحقق. فحتى لو لم يكونوا يهودًا أو مُتعصِّبين، أفهناك شعب في الدنيا لا يؤيِّد ويتحمَّس «لبطل» مثله يُحقِّق لهم كل يوم انتصارًا؟!

وهكذا كان على منطقتنا العربية، وقد أُعدَّ لها المسرح والأبطال الثلاثة كيسنجر والسادات وبيجن، أن تشهد فصلًا من تاريخها لو كتبه روائي أو مسرحي لما تمَّ بهذا الإتقان، ولتصوَّر الناس أن المؤلف جامح الخيال مخبول.

ولأن هذه الدراسة ليس هدفها كشف وتمحيص المعسكر الآخر، معسكر الأعداء، وإنما الهدف الرئيسي منها أن نتفحَّص معسكرنا نحن وما جرى فيه، والبطل في تلك الرواية الهزلية المأساوية الكبرى أنور السادات؛ لأن هذا هو الهدف، ولكن لأن هناك تداخلًا بين معسكرنا والمعسكر الآخر، أو بالأصح سيبدو واضحًا أن هناك نقطة وربما نقاط التقاء، فلا بد من لمحة سريعة نستكشف بها الآخر لتعرف حجمه ووزنه وفاعليته، ليس فقط في قيادة جانبه، وإنما، وهذا هو الأهم، في التأثير على جانبنا نحن. والحق أن «الأبطال» كثيرون في المعسكر الآخر، ولكننا سنُركِّز على قطبَين منهم باعتبار أن كلًّا منهم لا يُمثِّل نوعه فقط، ولكن يُمثِّل «مرحلة» من مراحل تطوُّر ذلك المعسكر الآخر ونموه.

ولنبدأ بالقطب الأول بيجن:

قلت ذات مرة في «مفكرتي» إنني مع آلاف الأحداث الصغيرة والكبيرة، بتوقف عندها مرَّات ومُتأمل لكلٍّ منها على حدة، ثم مُتأملها مجتمعةً، بدأت أستنُّ لنفسي قانونًا، ما طبَّقته

بعد هذا إلا ووجدت أنه ينطبق بكل دقةٍ، ذلك القانون هو أن لا شيء في منطقتنا يحدث صدفة أبدًا، وإنما كل شيء يحدث بتدبير. لا أقول بمؤامرة؛ فليس أسهل لدينا من استعمال تلك الكلمة، مؤامرة، ولا شيء أكثر منها تضليلًا؛ ذلك أنها تدفعك للتصور أن أعداءنا يُحاربوننا بالمؤامرات؛ أي بتدبيرات مُنفصلة كلٌّ منها واقعة دُبِّرت، هذا صحيح، ولكن لتُحقِّق هدفًا واحدًا ما، ولكنَّ أعداءنا للأسف ولسوء الحظ لا يُحاربوننا «بالقطعة»، بل هم لا يُحاربوننا أبدًا، إنهم أحيانًا يلعبون لعبة الحرب ونُسمِّيها مرةً مؤامرة العُدوان الثلاثي، ومرةً مؤامرة الانفصال، ومرةً مؤامرة هذا الانقلاب أو ذاك، أما هم فالمسألة بالنسبة إليهم مسألة «خطة»، تخطيط شديد البراعة له أهداف بعيدة المدى تتحقَّق عن طريق تحقيق أهداف قريبة المدى، بل تصل بهم البراعة في أحيان لأن «ينهزموا» أمامنا مرة، أو يَبدُون أنهم ينهزمون ونُحسُّ نحن أننا انتصرنا، ونبني على «انتصارنا» هذا احتمالات وتحليلات واستنتاجات، ويتركوننا هم نفعل هذا (إذ هو داخل في اعتباراتهم وحساباتهم) في حين ينصرفون هم لتحقيق بقية التخطيط.

مرةً أخرى أعود فأقول أن لا شيء في منطقتنا أبدًا يحدث صدفة، ومن لا يُصدِّق هذا عليه فقط أن يضعه في حسبانه ثم يعود بذاكرته إلى الأحداث ويتأمَّلها، ويتأمل حتى، وعلى هدى ما فات، الأحداث الجارية الآن؛ ليتأكَّد أن افتراضنا مائة في المائة صحيح. إنني مُتأكد الآن أن اجتياح لبنان مثلًا لم يتم التدبير له عقب معاهدة كامب ديفيد، إن تدبيره قد تمَّ قبل حرب ٧٣ وقبل المبادرة، بل إن المبادرة نفسها سيُثبت التاريخ أنها لم تكن فكرة عبرت بخيال «المرحوم» والطائرة تُحلِّق به فوق سماء تركيا ذات يوم من أيام عام ٧٨، أثناء عودته من ألمانيا أو رومانيا لا أذكر، لا شيء أبدًا يحدث صدفة.

ومجيء بيجن أبدًا لم يكن صدفة.

ومعذرةً إذ أستدرك وأقول إن الخطة العظمى أو Master plan الموضوعة لمنطقتنا من قِبل من سنُسمِّيهم الأعداء من هنا فصاعدًا ليست خطةً جامدة وغير قابلة للتعديل، إنما العبقرية في تلك الخطة أنها مطَّاطة تمامًا، وأن الواضح فيها غير المُتغيِّر هو أهدافها فقط، أما التكتيك فإنه يوضع مُستغلًّا كل خطأ في ردود أفعالنا، بل وحتى كل خطأ في معسكرهم.

وحين كانت الأنظمة العربية، وعلى رأسها «النظام الناصري»، تبدو في عين العالم وحتى في عين العرب أنظمة ديكتاتورية، كان على إسرائيل أن تبدو تمامًا على النقيض من تلك الأنظمة، فتجعل حزب العمال (الليبرالي قليلًا، الاشتراكي الديمقراطي) هو الحاكم؛

ليرى الدنيا والعرب الفارق الحضاري والسياسي بين العرب (الطغاة) وبين الإسرائيليين «الديمقراطيين». وبالطبع كان هذا الفارق فارقًا ظاهريًّا تمامًا، مثل وضع موشى ديان هاوي الآثار المثقف العالم، الذي يتكلم العربية أمام عبد الحكيم عامر القادم مسطولًا من «أسطال» الذي لا يبدو أنه قرأ في حياته كتابًا، ولكن المجتمع العسكري العنصري المهووس كان هو نفسه لم يتغيَّر، لا أيام حكم حزب العمال الإسرائيلي، ولا أيام حرب ٧٣، ولا حتى حين «بدا» أنه خسر الحرب في أولها.

ولكن ...

حتى وإسرائيل قد خرجت من الحرب باتفاقيتَي فض الاشتباك، وبانتصار أكبر هو اكتشاف السادات، أو بالأصح الكشف الكيسنجري عن هُويَّته، حتى وإسرائيل قد خرجت بهذا الانتصار الضخم، فلم ينسَ واضعو ومُنفِّذوا الخطة العظمى أن حكم حزب العمل الطويل بديمقراطيته الظاهرة قد بدأ يُغيِّر قليلًا من طبيعة هذا المجتمع الذي لا بد — للوصول إلى الأهداف الثابتة — أن يبقى المجتمع المُستفز المُقاتل المُلتف حول طبيعته العنصرية.

وهكذا من ناحية إسرائيل، كان لا بد من مجيء كتلة الليكود بقيادة بيجن بالضبط على النسق الذي جاء به هتلر ليحل محل النظام القيصري عقب هزيمة ألمانيا في الحرب الأولى، قائدًا مُتعصبًا جديدًا بحزب نازي مهووس بمركَّب السُّمو والتفوق الجرماني؛ ليُحقِّق ما عجز عن تحقيقه النظام البرلماني القيصري.

وأيضًا من ناحية العرب فقد وضح أن أنظمتهم — بعد موت عبد الناصر — قد بدأت تميل إلى أن تفك قبضاتها قليلًا عن شعوبها، وتدخل نوعًا من «الديمقراطية» لتكتسب لدى شعوبها شرعيةً كان يكتسبها نظامٌ فردي كنظام عبد الناصر بمواقفه المثالية.

وهكذا في مُقابل الأنظمة الديكتاتورية لدينا كانوا يُواجهوننا بنظامٍ اشتراكي ديمقراطي؛ فلما بدأنا نُنادي بالاشتراكية الديمقراطية (سمَّاه السادات عصر الانفتاح) كان لا بد أن يُواجهونا بنظامٍ مُتعصِّب يُعتبر بكل المقاييس نظامًا «فاشيًّا»، وإن بدأ في الظاهر «كنيستيًّا» حافلًا بالمعارضة والحياة الحزبية.

جاء بيجن لينقل المجتمع الإسرائيلي خطوةً أخرى، المجتمع الذي استولى على أراضٍ عربية شاسعة في حرب ٦٧، وكان يحتفظ بها احتفاظ اللص بما سرقه أو اختلسه، ويحلم بتملُّكها، ولكن كانت تنقصه شجاعة أفَّاك وقح، شجاعة رجل مثل بيجن، له من الصفاقة حد يستطيع أن يُسمِّي به عُداونًا صارخًا كالذي حدث في ٦٧ «حربًا دفاعية مُقدَّسة». وبهذا المنطق يدَّعي ملكية أي أرض تؤمِّن الوجود الإسرائيلي وتمنع عنه أي عُدوان مُباغت.

وهكذا جاء بيجن.

ولقد استوقفتني أكثر من مرةٍ تلك «القصة» التي كان يحلو للسادات دائمًا أن يُردِّدها، قصة أنه حين استوَت فكرة التفاوض مع إسرائيل ذهب إلى شاوشيسكو رئيس رومانيا خصوصًا ليسأله هذا السؤال: هل بيجن شخصٌ شجاع من الممكن أن يُنفِّذ وعوده؟ وحين أجابه شاوشيسكو «بلى إنه رجلٌ ملء وعوده»، هكذا وبمنتهى البساطة، وفقط بهذا الرد المُوجَز، آمَن السادات على الفور بقدرة بيجن، وقرَّر أن يمضي قُدمًا في تنفيذ خطة المبادرة.

لفت نظري كثرة تَكرار السادات لهذه القصة، مع أنها تبلغ في سذاجتها درجة الإضحاك. أممكن أن يُقرِّر رئيس دولة عاقل، ولتكن دولة الماو ماو، وقائد عسكري عربي هائل، يُقرِّر رئيسٌ مثل هذا أن يصطلح مع دولة مُعادية، وأي عداء، عداء عنصري رهيب، وأن يجرَّ بلاده ومعسكره إلى علاقة سلام بعد حرب، وتطبيع بعد عداوة، وصداقة بعد بُحور من الدم؟ أيمكن أن يفعل هذا كله فقط لمجرد أن السيد شاوشيسكو قال «نعم بيجن يفي بوعوده»؟

لفتت نظري القصة وتَكرارها، والسخرية بها بيني وبين نفسي، بل بيني وبين الآخرين، ولكن كثرة ترددها جعلتني أتأكَّد أن السادات يريد بها أن يُغطي شيئًا ما، ولمَ لا يكون الأمر العكس تمامًا؟ وهو أن السادات لم يُبادر بالذهاب إلى القدس والتفاوض مع إسرائيل إلا بالذات لأن بيجن كان هناك؟

بمعنًى آخر، لم يفكر السادات بالذهاب إلى القدس أولًا، ولم يبقَ عليه ليذهب إلا التأكد من صدق بيجن، لمَ لا يكون الأمر العكس، وأن تكون المبادرة كانت هناك أولًا (على الأقل في عقول المُخطِّطين)، وأن بيجن جاء «ليُحقق» المبادرة؟

أي إن الذي وقع أولًا هو المبادرة، أو بالأصح التفكير الجدِّي في تنفيذها، وكان على إسرائيل حينذاك أن تختار جانبها المفاوض؛ «فنجح» الليكود في الانتخابات، و«جاء» بيجن، وبتواجد الطرف المُناسب لم يعد أمام السادات إلا أن يُطلِق الطلقة الأولى و«يُبادِر» إلى القدس.

أقول هذا لأني مُتأكد أن بيجن لم يأتِ أبدًا صدفة، وإنما جاء لأن هناك وضعًا كان يُحتِّم تغيير الأحصنة الإسرائيلية، وضعًا لا بد فيه من «صقور»، صقور لماذا والحرب انتهت؟ صقور لأن حربًا ضروسًا كانت توشك أن تبدأ وقد أُعدَّ لها المسرح، حرب الدخول في فندق التسليم والتسلم والمفاوضات، وتلك في حاجة إلى عقولٍ عمياء بالتعصب والعناد، ليست جولدا مائير أو أبا إيبان أو أشباههما هم الذين يمتلكونها.

لم يكن مجيء بيجن إذَن صدفة.

وأيضًا لم يكن مجيء كيسنجر.

وفوق ما ذكرنا من أمر صناعة «العبقرية»، وتلميع من يريدون تلميعه، فلا ننسى أبدًا أن أمريكا، أو إذا شئنا الدقة الحضارة الأمريكية «إن جاز هذا التعبير»، هي أول حضارة في التاريخ «تصنع» الشخص العام سواء أكان نجمًا أو نجمة في هوليود أو «عبقريًّا» من العباقرة.

أوروبا فعلًا لم تكن تصنع نجومها بالدعاية وبالأخبار وبالحكايات، كان المُمثِّل الأوروبي أو الراقصة تصنعه أو تصنعها موهبتها الفذَّة فقط. سارة برنار لم يكن وراءها جيش من مُحرِّري الأخبار الفنية والمقالات المُدبَّجة بأجر، والصور المُنتقاة وقصص الغرام المُلفَّقة كانت عبقرية مسرحية فذَّة؛ بهذا وصلت مكانتها. في العالم الجديد اكتشفوا أن باستطاعتهم — بدلًا من انتظار ظهور المواهب — صناعة المواهب، يخرج الإنسان الأمريكي باكتئابٍ أصابه من الحرب، فيخلقون له ريتا هيوارث وجلين فورد وفان جونسون، يملُّ الكلاسيكية فيخلقون له جيمس دين ومارلون براندو، يهفو إلى جنس من نوع آخر فيصنعون له مارلين مونرو، وهكذا.

فن صناعة وتلميع وتقديم العبقرية هو واحدٌ من أكثر الصناعات الأمريكية أمريكية، وصحَّ من قال وأشاع «ده شغل أمريكاني»، نقولها ونحن نعني بها نوعًا من «البكش أو التهويش» المُتقَن تمامًا، المُتقَن إلى حدٍّ لا يستطيع معه الإنسان العادي أن يُفرِّق بينه وبين الحقيقي أبدًا.

ولكن كيسنجر ليس رجل شارع، ولا مجرد أستاذ جامعة، كيسنجر مُكتشِف، ومُكتشِف حقيقي، وصاحب نظرية ثبت في كثير من الأحيان بعد هذا نجاحها. إنه الرجل الذي كتب كتابًا تلقَّفه أصحاب النظام الأمريكي الرأسمالي الحقيقيون، وكأنه هبةٌ هبطت عليهم من السماء؛ ذلك أن بقية الإمبراطوريات، بما فيها آخرها الإمبراطورية البريطانية، كانت تمشي بمنطق أنها لا تصنع التاريخ، إنها تريد أهدافًا، وأنها تنتظر الفرصة ليحدث حدث من الأحداث، وحينذاك فقط تتدخل الإمبراطورية وتلوي عنق الحدث ليصير في صالحها أو لتستخدم نتائجه في صالحها، أو لتحقيق هدفها القصير المدى. أما هذا المُكتشِف «كيسنجر» فقد اكتشف أن انتظار أهداف التاريخ نوع من تضييع الوقت، وأن التاريخ يمكن صناعته، تمامًا كما تُصنَع النجوم والعبقريات والرؤساء، أو بالأصح بدلًا من انتظار الأهداف لتقع ونلوي عنقها أو نظفر بنتائجها ونُسخِّرها لصالحنا، نصنع نحن أو نصطنع

الأحداث ونجني ثمارها في التوِّ واللحظة، تمامًا مثل تصنيع اللؤلؤ في اليابان، بدلًا من انتظار المحارة لنظفر بها — المحارة التي تحتوي على اللؤلؤة الأصلية — تائهة بين آلاف المحار، نصنع نحن المحار في حوض من السلك، وندخل — صناعيًّا — ذرة رمل داخل كل محارة، وفي خلال أشهُر قليلة نظفر من كل محارة بلؤلؤة، لؤلؤة حقيقية، ولكنها من صنعنا نحن هذه المرة، أو بالأدق من اصطناعنا، لم ننتظر قانون الصدفة ليعمل عمله، صنعنا أو صنَّعنا الصدفة. وبما أن التاريخ هو مجموعة أحداث ضخمة، وبما أن الحدث الواحد الضخم هو مجموعة أحداث، فبخلق الأحداث الصغرى ممكن أن نخلق الحدث الأكبر، ونخلق مجموعة من كُبريات الأحداث، ممكن، بل من المؤكد، أن تحول مجرى التاريخ.

وبما أننا سنصنع الأحداث الصغرى، وبالتالي الكبرى، لتخدم مصالحنا، ونخطط لها ونعمل حساب كل هفوة، بحيث لا يمكن أن يفلت الزمام منَّا وتذهب ثمار الحدث لخصومنا، فممكن إذَن أن نُحوِّل مجرى التاريخ الآتي كله بحيث تعمل كل وقائع التاريخ القادم بإشارة منَّا، ولمصلحتنا فقط.

جاء كيسنجر إذَن في وقت بلغت فيه الرأسمالية الأمريكية حدًّا من الجشع جعلها تعتمد اعتمادًا كليًّا على جهاز استخباراتها في الاغتيال والمؤامرات وقلب أنظمة الحكم لصالحها، جشع أصبحت معه لا تحتمل الصبر قِبل أي واقع ضدها، وفي حاجة ماسَّة إلى أن يُنقذها مُنقِذ من حتمية التاريخ أو الحتمية التاريخية. فيا له من مُنقِذ ذلك الذي اكتشف لها أنها من الممكن أن «تصنع» هي التاريخ بأقل قدر من الأيدي القذرة، وبفاعلية أكثر، وضمانٍ أكيد للنتائج.

وما أعجب ما كان يمكن أن يقوله صاحب المادية التاريخية «كارل ماركس» عن المرحلة الكيسنجرية في الرأسمالية، غالبًا كان يُسمِّيها مرحلة «وصول الرأسمالية إلى الحد الذي بدأت تتدخل فيه في التطور التاريخي الحتمي، وتُغيِّر في كروموسومات أجنَّة الحاضر والمستقبل، بحيث تنشأ أوضاعٌ تاريخية جديدة لم تعرفها البشرية من قبل؛ لأن البشرية من قبلُ لم تُفكر في صنع التاريخ أو تحويل مجراه»، ولكن كارل ماركس أيضًا كعادته كان لا بد أن يُضيف: «ولكن هذا التزوير التاريخي أو تحويل مجراه، إنما بالضرورة ورغم أنه يعمل في صالح الرأسمالية، هو كالذي يُعجِّل بنهايتها سواءً بسواء؛ فإن اختصار الزمن سيُعجِّل بتكاثر المتناقضات وتراكمها بحيث يُسرِع أكثر في عملية التغير النوعي من الرأسمالية إلى الاشتراكية.»

ولكن كيسنجر الذي جاء بنظرية إمكان صنع التاريخ، التي كان أحد تطبيقاتها أنه لا بد لأي مشكلة حتى تُحَل من ضرورة «تسخينها» ليَسهل حلها. هكذا «سخَّن» الوضع

في فيتنام تمامًا بالغارات الوحشية التي لم يعرف لها التاريخ مثيلًا على ميناء هايفونج وغابات فيتنام وكمبوديا، لا ليحسم المفاوضات الدائرة في باريس كما خُيِّل للبعض، وإنما ليصنع ما هو أدهى؛ ليجعل الرأي العام الأمريكي «يصرخ» من وحشية ما يُحدِثه الجيش الأمريكي في فيتنام، بحيث يُقرِّر الرئيس الأمريكي الجلاء عن فيتنام الجنوبية نفسها وإنهاء الحرب يتنفَّس الرأي العام تنفُّس المُستريح الذي «انتصر». أين هذا من انسحاب «بارد» من فيتنام كان لا بد سيجعل الرأي العام ينقضُّ بوحشية الشعوب حين تُدرك أنها هُزمت، على من هزموها، على كل مسئول عن الحرب والدخول في الحرب وما حدث في الحرب. أما أن تنسحب أمريكا على هذا النحو «الاختياري» وبعد صراخ من «ضميرها» العام، فشيءٌ مُختلِف تمامًا. وهو أيضًا واضع استراتيجية وتكتيك حرب ٧٣ لتسخين الموقف بين إسرائيل ومصر بالذات تمهيدًا لصلحٍ تامٍّ مُنفرِد بين البلدَين. والكيسنجرية لا تزال سارية حتى بغير كيسنجر، أو ربما به من وراء ستار؛ فما حدث في لبنان كله ليس سوى عملية تسخين إلى درجة الحريق العارم تمهيدًا لأتعس حل للقضية الفلسطينية.

هذا هو كيسنجر، أستاذ الجامعة، الذي تلقَّف أصحاب أمريكا الحقيقيون نظريته تلقُّف الملهوف، وتلقَّف «اللوبي» اليهودي أيضًا نظريته تلقُّف المسعور؛ فالاستراتيجية التعصبية الصهيونية التي تسعى لحكم العالم من خلال حكم الدولة القوية الوحيدة التي تحكمه رحَّبت بكيسنجر؛ لأنه سيُمكِّن أمريكا من هذا أولًا، وثانيًا لأنه هو أيضًا جزء من «اللوبي»، وسيكون بداية ليس فقط لأن يعمل اللوبي من وراء ستار، ولكن أيضًا — وهذا هو المهم — أن يحكم علنًا، وعلى الملأ، وبنفسه هذه المرة، يحكم الدولة التي تحكم العالم.

وهكذا كان لا بد من قصةٍ محبوكة يصعد بها كيسنجر من أستاذ في هارفارد إلى أعلى منصب في أمريكا، منصب الرئيس الفعلي، بحيث حين يتقوَّض نيكسون يصبح كيسنجر هو فعلًا الحاكم، سواء كان كيسنجر بذاته أو بنظريته.

وهذا هو بالضبط ما حدث.

وماذا عن جانبنا نحن؟

ألقينا نظرةً عاجلة على قُطبَي المعسكر الآخر، أو بالأصح على إسرائيل في مرحلة البيجينية — مرحلة تثبيت الاحتلال والاستيطان وابتلاع كل ما تقدر المعدة الإسرائيلية على ابتلاعه — بالأصح مرحلة التوسع الإسرائيلي وانتقالها من دولة إلى إمبراطورية.

وألقينا نظرةً على كيسنجر أو بالأصح الولايات المتحدة في المرحلة الكيسنجرية، أعلى مراحل الرأسمالية بعد مرحلة الرأسمالية الاستعمارية «التي وقف عندها التحليل المادي الجدلي الماركسي للتاريخ، ولم يكن ليتصور حدوثها أبدًا، مرحلة انتقال أمريكا الرأسمالية من عصر الاستفادة من وقائع التاريخ إلى عصر صنع وقائع التاريخ لتلوي عنقه تمامًا للسيطرة على العالم جغرافيًّا، وتاريخيًّا أيضًا».

إن مسألة التحالف بين الكيسنجرية والبيجينية أصبحت قضيةً صبيانية في رأيي، وهذا الحديث الكثير عن أوجُه التناقض بين أمريكا وإسرائيل وأوجُه الاتفاق، والضغط الأمريكي على إسرائيل، والضغط الإسرائيلي اليهودي على أمريكا، كل هذا أصبح في رأيي عبثًا.

فلا تحالف، ولا تناقض.

إن المسألة تخطيطٌ عميق هائل لأن تحكم الصهيونية أقوى دولة في العالم تحكم بواسطتها العالم.

فاللوبي هو الذي يحكم أمريكا، وكيسنجر ليس إلا جزءًا من ذلك اللوبي الذي اكتشفه وضخَّمه وصنعه واتخذ منه «ميكيافيلِّي» أمريكا، بأحدث ما وصل إليه العقل البشري من تكنيك صناعة التاريخ.

كل ما في الأمر أنه ما دام العرب والعالم يريدون لعبة يتسلَّون بها فلنُقدِّم لهم تلك اللعبة؛ لعبة المتناقضات والتناطحات القائمة بين هذه وتلك، إنها تسلية لا تضرُّ أبدًا، بل

هي في الحقيقة تنفع جدًّا؛ فهي لينحدر العرب، ومعهم العالم الطيِّب كله، عن الخطة الجهنمية الخرافية، التي لو تكشَّفت لوقف شعر العرب والعالم رعبًا لمرآها، ولربما اندفع هذا أو ذاك في أعمال «شريرة» غير محسوبة؛ فلينحدر العرب، ولتنحدر الدنيا، وليتفرَّجوا على مسرح فيه بيجن الشرير وشارون الجزَّار وكاهان الصادق الطيِّب، ونافون المعقول، وريجان ذو الشعر المصفوف بعناية، الممثل بالسليقة، ليمثِّل دور الرئيس «الغاضب» من أعمال شارون وإيتان، والصديق صاحب المبادرة المُنقِذ للعرب المُعتدِلين، والمُخوِّف للعرب المُتمرِّدين الرافضين، وليَكن للدبِّ الأبيض دور المُتفرِّج القابع — ما دام الأمر لا يُهدِّد حدوده — يمز بأفغانستانه ونُشرِّع في وجهه كلما أراد أن يزوم شوكة بولندا أو زرع الصواريخ.

دعوهم يعتقدون.

ولنُوزِّع الأدوار جيدًا.

ولكن لأن هناك دورًا أساسيًّا ثالثًا كان لا بد أن يقوم به عربي أو على الأقل شخص يرتدي الجلابية ويتكلم العربية، فلنعهد به إلى مُمثِّل «عربي» من الدرجة الثالثة، نصنعه أيضًا ونُلمِّعه ونُضفي عليه آيات العبقرية بحيث نجعل استفتاءً تقوم به مؤسستنا (على الطريقة الأمريكية في البكش) يقول: لو رشَّح السادات نفسه رئيسًا لأمريكا أمام كارتر لنجح باكتساح.

حسن جدًّا.

ولأن هدف هذه الدراسة ليس البحث في المعسكر الآخر، ولا استعراض آيات الصراع في بقية أنحاء العالم، حتى العالم الإسلامي؛ لأن بحثنا الرئيسي هو الكشف عن حقيقة مُمثلنا هذا، المحور الثالث في المسرح الذي — كما رأينا — أُعدَّ لكي يُغيِّر في مجرى تاريخ العرب وينقلهم من المرحلة الثورية الوحدوية الناصرية الصارخة بالقومية العربية إلى المرحلة الساداتية التي تُطفئ نيران الثورة على الاستعمار، وتقول: يا أمريكا كوني بردًا وسلامًا على شرقنا العربي، ويا إسرائيل تُبنا عن الحرب معك، فاقبلي توبتنا.

لأن هذا هو موضوعنا فيُستحسن أن ننتقل إليه فورًا.

وقد كان من الممكن أن أُنحِّي كل الوقائع والأحداث وما كُتِب عن الموضوع جانبًا، وأُورِد مباشرةً رأيي فيه.

وقد كان من الممكن أن أستعين بالمقتطفات وبالوقائع من مذكرات كارتر أو كيسنجر أو الشاذلي أو غيرهم.

ولكني أختار شاهدًا من أهلها لأتفحَّص شهادته وأُورِد أقواله.

شاهد من قلب المعسكر الساداتي نفسه، الرجل الذي اختاره السادات من بين المصريين جميعًا ليَخلف وزير خارجيته «إسماعيل فهمي» الذي استقال احتجاجًا ورفضًا لمبادرة القدس. ومعنى اختياره هذا أنه كان يثق تمامًا أن وزير الخارجية الذي اختاره «محمد إبراهيم كامل» متفِق معه تمامًا، ومُتحمِّس جدًّا لمبادرته وللصلح مع إسرائيل، ولكل السياسة الساداتية في الداخل والخارج.

واختاره وعيَّنه على معاهدة صلح تتمُّ بعد لقاء لم يكن يعرف أحد أنه سيكون في كامب ديفيد.

رجل إذَن لا تشكُّ في «ساداتيَّته»؛ بمعنى أنه ليس «مُحايدًا» أو «عدوًّا أو مُختلفًا» في المبادئ مع السادات.

إنه — حين جاء — معه تمامًا.

فلماذا يستقيل رجل كهذا ويُنفِّض يده من كامب ديفيد وكل ما حدث بعدها؟

إن الإجابة على هذا السؤال الذي يبدو بسيطًا جدًّا، هي المِفتاح الذي سنُحاول معه أن نفتح الباب الذي ظل مُغلَقًا طويلًا، فبقينا نكيل الاتهامات للسادات ولكامب ديفيد من الخارج دون أن ندري شيئًا أبدًا عمَّا دار في الداخل.

وحتى حين نشر كارتر مذكراته، ومن قبله كيسنجر، لم نعرف أيضًا شيئًا كثيرًا عمَّا دار داخل الوفد المصري وعن موقف السادات إلا من الخارج أيضًا وإن كان خارج الداخل؛ داخل كامب ديفيد. مذكرات محمد إبراهيم كامل إذَن هي مذكرات شاهد من أهلها؛ أهل كامب ديفيد.

وعليها وحدها ومنها سنستقي مادة الشهادة لهذه الدراسة.

ولكن قبل أن ندخل في صميم المذكرات لنعرف الكثير جدًّا عن ثالثة الأثافي في مثلثنا الرهيب (كيسنجر – بيجن – السادات)، فإن هناك تساؤلًا لا بد أن يُساور أي مُواطن شريف يقرأ هذه المذكرات: إذا كان الأمر بهذه الخطورة التي وضحت لعينَي الرجل تمام الوضوح، فلماذا لم يُعقِّب استقالته بنشر هذه المذكرات في حينها؟ فهناك فارقٌ كبير بين نشرها آنذاك وبين نشرها الآن؛ في ذلك الوقت كانت ستصبح ذات فائدة وفاعلية عظمى، بل ربما كانت تُغيِّر من تداعي الحوادث، أو ربما نجحت في خلق رأي عام يوقف المؤامرة.

أن نُخفي حقائق وجودنا الحاضر التي من الممكن أن تستخدم في تغيير هذا الوجود، أو أن نكتمها إشفاقًا على الآخرين أو على أنفسنا ونقولها بعد أن يكون وقت الاستفادة منها

قد فات، مسألةٌ يرفضها الكثيرون، ولكن نشرها حتى الآن لا يخلو من شجاعة؛ فالحزب الساداتي لا يزال قائمًا وموجودًا داخل مصر وفي وطننا العربي وفي أمريكا وإسرائيل، وهناك أناس كان من الممكن أن يكونوا أكثر شجاعة أو ربما مُتهوِّرين فدائيين ويُغامِروا بنشر هذه المذكرات إبَّان حكم السادات، أو حتى إبَّان مفاوضات معاهدتَي السلام نفسها، ولكن الرجل ليس مُتهورًا إلى هذه الدرجة، وأيضًا ليس من الوجل بحيث يخاف أن يقول الحقيقة والحزب الساداتي الرهيب والحزب الواضع للخطة «العقل السيد» والإسرائيليون والأمريكان هم باقون شديدو التوحش والسعار.

وكان من الممكن العبور والمرور مرور الكرام على هذه التفصيلة، ولكني أقولها جريًا وراء أفكار ثوري رومانسي يحلم — لا يزال — بالبطولة والأبطال، بينما نحن بإزاء حروب أصبحت كلها لا بطولة فيها إلا للشهيد الذي يسقط، وبإزاء السياسة، وقد أصبحت علمًا عميقًا لا يُبحِر فيه إلا ذوو عقليات خارقة القدرة والذكاء، ولم يعد الصراع السياسي أو العسكري ساذجًا، لقد أصبح يحتوي كل علوم الدنيا مجتمعة، بما فيها علوم النفس وعلوم الاجتماع وعلوم اللغات والرموز وقوانين الذرة والإلكترون، واشتعل الصراع على كافة المستويات، ووضع في حسابه كل التقديرات وعلى كل المستويات، من الضعف الفردي إلى الضعف الشعبي، وأدخل حتى أقصى اليسار في لعبة اليمين وأقصى اليمين في لعبة اليسار، نحن في الحقيقة بإزاء ظاهرةٍ خارقةٍ جديدة كان لا يمكن إلى عهد قريب جدًّا أن نؤمن مجرد نؤمن بإمكان حدوثها.

ولا بد أن نراها الآن على عجَل، وبكل ما يملك المرعوب من يقظة، وبكل ما يملك اليقظ من وعيٍ وفطنة، وإلا ضِعنا؛ فالمؤامرة ما زالت قائمة، بل هي في أعلى أطوارها.

ولبنان يوشك أن يُبتلع.

وسوريا متهَمة مُهانة، دورها قادم.

والمقاومة في عصر الشتات.

والأردن على وشك.

وسيناء رهينة.

والمؤامرة مُرعِبة.

ونحن لا نزال على تمام الجهل بأبعادها.

نحن بهم جهلاء تمامًا.

وهم بنا يعتقدون أنهم العالمون تمامًا.

ولكننا سننتصر. كيف؟

لا بد أن نتعلم أولًا كيف نتعرَّف، وكيف نكتشف، وكيف نُشعل كل شموع ذكائنا، ونعرف ولنمضِ نعرف؛ لنعرف بالضبط ماذا وكيف حدث ما حدث.

الغوص في حقبة السادات

لكي أستطيع الحكم على السادات من خلال مذكرات محمد إبراهيم كامل، والوقائع التي أوردها كشاهد عيان أو شاهد ملك (رئيس جمهورية هذه المرة) عن المدة التي قضاها وزيرًا لخارجية مصر في أحرج فترة تحدَّدت فيها سياسة جديدة تبعد بزاويةٍ قدرها ١٨٠ درجة عن سياستها في الأحقاب السابقة، وحتى في عصر ما قبل ثورة يوليو أيام حكم السراي والأقليات والإنجليز، كان عليَّ أولًا أن أحكم على المذكرات نفسها؛ ولهذا كان عليَّ أن أنتظر حتى يفرغ نشرها تمامًا. ليس هذا فقط، بل وجدت نفسي أتصرَّف بما يُمليه ضمير أي قاضٍ، أو بالأصح بما يُمليه ضمير أي إنسان ينشد إصدار أي حكم موضوعي عادل على أي إنسان أو حقبة. وأنا ممن يؤمنون كثيرًا بأهمية أن أرى من يهمُّني الحكم عليهم أو على أعمالهم وجهًا لوجه.

فالشكل البشري والجسد البشري نفسه والملامح، والنواة العقلية العصبية المدفونة بعمقٍ داخل الإنسان، لا يستطيع هو نفسه في معظم الأحيان أن يُعبِّر عن كل ما تحتويه، وتستطيع هي ودون وعي منه أن تُصدِر إشارات من تصرُّفات وإيحاءات وطريقة تأكيد كلمة أو رسم شخص، أو فلتة لسان تومئ إلى ما يريد الإنسان أن يمنع لسانه من الخوض فيه، أشياء كثيرة جدًّا علمتني الحياة بعدها لكي أكون موضوعيًّا تمامًا في حكمي على إنسان أن أراه، وأعتمد على إحساسي الذاتي المحض، الذي تستجيب فيه نواتي الداخلية الدفينة لإشاراتٍ واعية أو غير واعية تصدر عن الإنسان الآخر، وبإدراك واعٍ وغير واعٍ منِّي، إدراك أطلقنا عليه — نحن العرب — كلمة «الفِراسة». والفِراسة موهبة يمتلكها كثيرون في موطني الأصلي بمحافظة الشرقية بمصر؛ فالشراقوة يمتلكون طيبة وخبث الفلَّاح المصري القديم، وأيضًا ولطول وكثرة ما احتكُّوا بالقبائل والمماليك العربية الشرقية، بحضرها

وتُجَّارها وبَدوها، يمتلكون أيضًا نوعًا من الفِراسة يتخصَّص بعضهم فيها و«يقيسون الأثر»، أو يقيمون العدالة في مجالس القضاء الشعبي والعربي، أو يشتهر عنهم القدرة على فرز معادن وأنواع واستكشاف خواص الرجال.

وثلاثة أرباع أحكامي على الآخرين أُصدرها من أول دقائق تعرُّفي بهم، ولم أُخطئ في حكمي مرةً واحدة. ولا أقول هذا تفاخرًا أرعن بالذات، وإنما لأُذكِّر المُتشكِّك من القرَّاء أن المعرفة «الفِراسية» أو المعرفة بـ «الأنتويشن» أو بالإدراك الحدسي هي حقيقةٌ علمية مُعترَف بها، وأحيانًا يعتبرونها طريقةً أكثر مباشرة وأكثر دقة وصحة من المعرفة المبنية على التحليل أو التجميع أو الإدراك العقلي المحض غير المختلط بالإحساس الجوَّاني الذاتي المُرهَف.

وهكذا لم أكتفِ بقراءة المذكرات، وإنما رحَّبت بالفكرة التي عرضها صديقٌ مشترك، والتقيت بوزير خارجيَّتنا السابق لأول مرة، ورأيته رأي العين.

والحق أني سعدت بمعرفته، وسعدت أكثر أن الصورة التي كنت قد كوَّنتها عنه لم تتغيَّر أبدًا حين عن عمدٍ حاولت جهدي — وليغفر لي هذا — أن أستخلص أي زاوية أو كسر من زاوية تغيُّر في حكمي الغيبي عنه، حتى ما تصوَّرته من وجود ذلك العامل الهام جدًّا في عالمنا الثالث، بل وفي كل العالم، من رغبة أو هزَّة لمنصب الوزير تعمل عملها لدى أي عرض بالوزارة يتلقَّاه المُواطن، خاصةً إذا كان هذا المُواطن قد قضى عمره مُوظَّفًا في نفس الوزارة التي يُعرَض عليه الآن وزارتها، مسائل طبيعية بشرية، بعض الناس يضع نفسه فوق مستوى البشر في مصافِّ الملائكة، ويجزم أنه لا يُحسُّها ولا يُوليها أي اهتمام، ولكن مشكلتي أني لست ذلك المُتحزِّب السياسي وحيد النظرة، بل لست حتى كاتبًا سياسيًّا، أنا كاتبٌ درامي حين أكتب في السياسة وعنها وعن رجالها، أستخدم كل قدراتي الدرامية والفنية لأُحاول تخيُّل كنه ما حدث بالضبط، وأيضًا، وهذا هو المهم، أُحاول ألَّا أجعل السياسيين مجرد قضايا، ولكن أراهم كما هم بشرًا وشخصيات ونقاط ضعف ونقاط اختراق، ونقاط قوة أيضًا، بل أحيانًا أعرف الكثير عن مبدأ السياسي أو طريقته، من شخصية زوجته ورأيه فيها ورأيها فيه، والعلاقة القائمة بينهما أو بينه وبين عائلته؛ فالزوجة للسياسي أول اختياراته الشخصية الحاسمة، وامتحان يُحسَب له أو عليه، بل قد يقوده — كما حدث في أحيانٍ كثيرة — إلى حتفه.

وفي اللقاء ملأت — بالأسئلة الكثيرة وما تلقَّيته من إجابات — الفجوات المتعددة التي خلَّفتها قراءة مذكرات الرجل؛ فلقد كتب المذكرات وكأنما يعيد على مسامع نفسه بصوت

عالٍ كل ما جرى وكان، في حين أن كل قارئ لا بد أن يقرأ هذه المذكرات ليستكمل بها الجزء الناقص من صورة ما عِشناه جميعًا، بدءًا من مبادرة القدس ٧٩ إلى توقيع معاهدتَي كامب ديفيد. ولأن هدفي الشخصي، أو بالأحرى موضوعي كان هو بطل تلك الفترة (أنور السادات)، فقد كنت أقرأ المذكرات وأتتبعها، وها أنا ذا أتصدَّى للتعليق عليها رغم أن أحدًا لم يطلب منِّي هذا التعليق، ورغم أنه قد يخلق لي مشاكل لا أول لها ولا آخر، وما فعلت هذا إلا لإحساسٍ جادٍّ بالواجب الذي أملى عليَّ أن أُسمِّي آخر مجموعة من «مفكرة يوسف إدريس» صدرت في كتاب باسم: شاهد عصره.

فالكاتب في رأيي شاهد، ليس شاهد «ما شافش حاجة»، وإنما شاهد بحكم عمله وبالضرورة رأى كل شيء، وجائزٌ أنه رأى ولم يُدرك، أو أدرك معنى بعض ما رأى، ولكن الكاتب بحكم وظيفته الحيوية الاجتماعية عملُه أن يرى ويسمع وأحيانًا يقرأ، ويعيش عصره وبلده وعائلته الصغيرة والكبيرة؛ فإذا حدث هذا فإن عمله التالي المُحتَّم أن يُدليَ بشهادته، ليس بعد فوات العصر وإنما أيام العصر نفسه؛ فهو شاهد عصره على عصره وأمام مُعاصريه؛ فالكاتب الحق لا يكتب ليُسجِّل موقفًا، وإنما هو يكتب ليُغيِّر، ليُغيِّر الناس؛ وبالتالي ليُغيِّر العصر، وإلا خرج عن دائرة الكتابة أصلًا، أو أهمل دوره إهمالًا يصل أحيانًا إلى حد الخيانة.

شاهد عصره، لا بد أن يكون الكاتب، شاء أم أبى. وأحد هواياتي كقارئ أن أتفرَّج على زملائي الكُتاب والصحفيين وأرى كيف ومتى يُدلون بشهاداتهم وأمام من.

ومن المُضحِك أن الكثيرين منهم أعتبرهم وبضميرٍ مُستريح شهودَ زور؛ لأنهم في الغالب يُدلون بشهادتهم على عصرٍ أمام عصر آخر يستعذب التُّهم المنسوبة لمن سبق، بل وأعرف كاتبًا على وجه التحديد لا عمل له إلا الإدلاء بشهادات مُخالفة تمامًا لدوره الحقيقي الذي عرفه الناس عنه، وكان دائم الجهر به، ويفعل هذا بحماسٍ شديد وبنوع من الكذب المُتحمِّس تمامًا على الذات وعلى الناس وعلى التاريخ، وحتى على أولئك الذين رأوه رأيَ العين داعية ومُبشِّرًا وقارع أجراس القداسة لعصر بأكمله. أليس من المُضحِك أن تقرأ له بعد هذا بطولاته في عداء ذلك العصر وملكه وانحيازه للشعب الكادح أيامها وقضيَّته؟ مهزلة.

شهادة الكاتب على العصر، كم من الجرائد تُرتكَب في حقك وباسمك أيتها الشهادة، وإلى الآن، وبلا أدنى خجل، قليل من الخجل أيها الكذابون الكبار، قليل من الخجل؛ فعلى من تضحكون؟ ومن تخدعون؟ وأصابع الناس حتى الصِّبية الذين لم يشهدوا عصركم «المجيد»

ذاك يُشيرون عليكم بها من خلف ظهوركم سخريةً، سخرية من الذين يُحاضرونهم صباح مساء عن الصدق وقدسية الكلمة وشجاعة قول الحق، وهم وهم أنفُسهم يُفوِّتون الجَمل أمام الأعيُن من ثَقبِ الإبرة، والكذبة التي يعرف الجميع كذبها مهما يُغطونها بالتهاويل والتحسينات والكساوي عاريةٌ مِثلهم، هكذا الكل يراها، عارية مِثلهم حتى من ورقة التوت.

المذكرات كثيرًا ما تُضلِّل

ولكن ... ما علينا ... إنها ظواهر من مستلزمات العصر الذي لا بد أن نشهد عليه، وما نوردها هنا إلا لنُذكِّر القرَّاء، وأولهم قرَّاء هذا الكلام، إن كتابات الكتَّاب والصحفيين في وطننا العربي، وربما في كل مكان، بل حتى مذكرات الرؤساء والوزراء والمسئولين، لا بد ألا يأخذها أحدٌ قضية مُسلَّمًا بها، لا بد أن يتفحصها بدقة ويعرف تاريخ قائلها وكاتبها، ويعي بمواقفه وكمِّ الصدق في تصرُّفاته وتاريخه وكمِّ الكذب، وأنا شخصيًّا بدأت أعتقد أنني يجب أن أنظر إلى كل مذكرات خاصة تُنشَر على أنها نوع من الدفاع المسبق عن النفس أمام الحاضر والقادم؛ بمعنى أنها شهادة زور إلى أن يثبت من تمحيصها وتدقيقها وقراءة مراجع كثيرة غيرها بأنها شهادة حق، بل كثيرًا ما أكتشف أنها شهادات وإن كانت حقيقية إلا أنها يُراد بها في النهاية باطل، والاستثناء نادر، ولكنه بالقطع موجود، وبالذات في مذكرات محمد إبراهيم كامل، إنها شهادة حق تأكيدًا لموقف حق، ولا يُراد بها سوى إزجاء الحيثيات لموقف تمَّ بلا شرح أو تبرير أو حيثيات.

وهكذا حدَّثت نفسي وأنا لم يَبقَ أمامي في مقابلتي لمحمد إبراهيم كامل سوى سؤال، ذلك السؤال المُلِح: متى بالضبط أحسَّ بضرورة أن ينفض يده من اللعبة ولماذا؟ هل السبب أنه أحسَّ أنها في النهاية عملية خيانة؟!

وفعلًا ألقيت السؤال، وبمنتهى الوضوح والتحديد على محمد إبراهيم كامل بعد أن كنت قد عرفت تمامًا أرض الشخصية التي قرأت لها وأُحاورها، وأدركت أنه يملك كمًّا من الشجاعة يستطيع أن يُجيب به وفي الحال على صراحة السؤال بجوابٍ أكثر جرأة وصراحة.

فمن المُضحِك المُبكي أن مذكرات محمد إبراهيم كامل حافلةٌ بالمواقف التي يندى لها الجبين خزيًا لأعضاء مجلس الأمن القومي المصري، أولئك الذين ارتضَوا لأنفُسهم أن يكونوا أعضاء زينة في مجلسٍ مفروض أنه يُقرِّر أن يخوض شعبنا حربًا أو يُصوِّت على سلام

أو استسلام، مجلسٍ مثيله في أمريكا أو في غيرها يُعتبر كل عضو فيه ليس مجرد موظف يقول نعم يا أفندم وحاضر يا أفندم، ويظل صامتًا وهو يرى ويسمع خطل كلام رئيس المجلس وخطورته، وإنما كل عضو فيه عقل قائد، وشخصية، ومسئول مثله مثل الرئيس تمامًا عن حاضر شعبه ومستقبله، ومسئوليته تاريخية لا بد أن يحاسب نفسه ويحاسب الشعب عليها أدق وأعسر حساب.[١]

سجَّل محمد إبراهيم كامل على الملأ، فيما خلا آراء ومواقف الدكتور أسامة الباز، رغم أنه كان أصغر عضو في المجلس سنًّا ومجرد وكيل وزارة ومدير مكتب نائب رئيس الجمهورية بين العتاولة الكبار، فيما خلا هذا لم يكن أحد من أعضاء المجلس يجرؤ على تفنيد رأي واحد من آراء السادات، بل كانوا يتولَّون في السر تحذير كامل ونصحه بالصمت مثلهم؛ مخافةَ أن يغضب السادات من الآراء التي يُعارِضه بها.

وهكذا مأساتنا الكبرى كعرب، نظلُّ نقول للرئيس أو للطاغية نعم ونعم ونعم ونهزُّ الرءوس، ونحن مُوقِنون تمامًا أن ما يقوله خطأ جسيم وجريمة قد تؤثِّر في شعبنا ويمتدُّ أثرها المُدمِّر إلى أحقاب وأجيال، نظل نفعل هذا دون ارتعاشة ضمير تُذكِّرنا أن الساكت عن الحق شيطانٌ أخرس، وأن الطاغي يطغى لسكوتهم أكثر مما يطغى بنوازعه هو وخصاله الطاغية، وأنه إذا كان في الأمر جريمة تبدأ بهم أولًا وتنتهي بهم أخيرًا.

ولأن أحدًا من أعضاء مجلس الأمن القومي السابق لم يفتح فمه بكلمة يُعلِّق على ما رواه محمد إبراهيم كامل، عمَّا دار في جلسات ذلك المجلس من مؤامرةِ صمتٍ فاجعة على مصير السياسة المصرية وهو يتحدَّد أمام أقطاب تلك الفترة، فمعنى هذا أن ما ذكره صحيح، وأنهم فعلًا مدانون.

بربك، يا إلهي، ما هي المصيبة التي كانت ستحدث لأيٍّ منهم لو قال رأيه الصريح، أو أيَّدتم الحق الصريح إذا قاله الغير، وأخذتم الموقف الجدير بالرجال؟ هل كانت ستُعلَّق لكم المشانق؟ إن أقصى ما كان يمكن أن يحدث هو أن يُقال إياكم أو يستقيل ويُبعَد عن «الصورة»؛ تلك الصورة التي استعبدتكم إلى درجة بيع الذات والضمير والرأي مُقابل

---

[١] ولا بد أن أنوِّه هنا بالدور الشجاع المبادر الذي قام به السيد/ حافظ إسماعيل، مستشار الأمن القومي المصري أثناء حرب ٧٣ وبعدها، حين استجاب ونشر رأيه — بعد فرقعة الاتهامات المشهورة — والذي نشر بمجلة المصور في عدد ١٢ مايو، وأكَّد فيه أن ما افترضته عن احتمال الثغرة كان صحيحًا، وكان مُقدَّرًا من الجانبَين المصري والإسرائيلي.

الظهور، مجرد الظهور في الصورة، وكأنكم طلبة الشهادة الابتدائية يفرحون بالصورة، يجلسون فيها لأول مرة بجوار الناظر.

كارثة حقًّا، كارثة أُصادفها يوميًّا، وأنا ألقى بين كل حين وحين واحدًا أو أكثر من عتاولة هذا الزمان أو ذاك، أولئك الذين كانوا يومًا في الصورة، وكانت ترتعد لذِكراهم الأبدان، يا لكمِّ الهيافة والتهافت الذي أجده في أشخاصهم، إلى درجة أن أقول لنفسي: يا للهول!

أهؤلاء كانوا حكامنا فعلًا؟ ألهذا اختيروا واستمرُّوا؟ ألهذا كانت خيباتنا العربية والمحلية أغرب وأشهر خيبات جميع الشعوب في جميع العصور وجميع أنحاء العالم.

ألقيت السؤال على الرجل: متى أدرك أنه يجب أن يرحل، وأن رائحة الطبخة قد بدأت تفوح؟

وأجاب محمد إبراهيم كامل، والغريب أنه لم يقل كلامًا جديدًا؛ فقد تذكَّرت أني قرأته في إحدى حلقات مذكراته التي رغم دقَّتها الشديدة، بل ربما لحرصه على هذه الدقَّة، عذَّبتني قراءتها؛ فالأحداث عنده مُتساوية الأهمية بحيث من الممكن أن يضيع الموقف الجوهري حين يتوه وسط حشود التفاصيل؛ التفاصيل التي كثيرًا ما يُضفي عليها أهميةً تقفز بها إلى مصافِّ مزاحمة الحوادث الأخطر. وهكذا، حين أجاب بدَت الحقيقة واضحةً وضوح الشمس، أو بمعنًى أصحَّ مدَّ يده داخل حانوته المزدحم بالتفاصيل والجزئيات واستخرج جوهرة الموقف كله، ووحدها أضاءت داخل وخارج الدكان، وامتدَّ ضوءها من القدس إلى معسكر داود، إلى اللحظة الحرجة التي نحياها الآن.

كامب ديفيد بداية وليست نهاية

قال: وصل السادات إلى كامب ديفيد وقد سلَّم آخر قطعة من ملابسه لدى أول خطوة خطاها داخل المعسكر، بتعبيره الصريح. وصل عاريًا ومفتوح العينَين ومُدرِكًا، كان يعلم وهو جالس إلى مائدة المفاوضات وأمامه بيجن في كاملِ زيِّه حتى ربطة العنق، وبجواره خلاصة مُستشاريه ومئات الردود الجاهزة المُجهَّزة المُفحِمة على أي وكل اعتراض أو مطلب أو محاولة تبرير، حتى بزوجته، وقد حفر لها خندقًا بجواره تحشو له أحزمة الرصاص، بكارتر، وقد استدرجه إلى حدٍّ جعل رئيس أمريكا يُقامر بالرئاسة وبمستقبله السياسي، ويُمسِك هو «بيجن» بيده جوكر الكسب أو الخسارة وبحنكة مُحترف قمار وتهويش يلعب بأعصاب «الشريك الكامل»، الذي راهَن بكل ملابسه وإن بقيت على جسده، والشريك الآخر الذي باع ملابسه قبل أن يجلس إلى المائدة؛ ولهذا فهو يلعب من جيب الشريك الكامل بحيث إذا كسب فالمكسب كله للشريك الكامل، وإذا خسر فماذا يأخذون من الصيني الذي أصبح بعد غسيله؟!

بتصوير وتصور الوزير السابق كامل أن الإستربتيز السياسي بدأ بالقدس وزيارتها.

وبتصوير وتصور الكاتب الكبير الأستاذ هيكل أنه بدأ من مظاهرات ١٨، ١٩ (انتفاضة الحرامية كما يُسمِّيها الحرامية، وانتفاضة الشعب كما يُسمِّيها الشعب).

وليس السيد محمد إبراهيم كامل ولا الأستاذ محمد حسنين هيكل ولا كل من لا أعرف وأعرف من مُفكِّري المرحلة وكتَّابها الكبار هم فقط من حاورت وحاولت العثور معهم على البداية؛ فبعضهم يذكر أن البداية كانت بالضبط مع كيسنجر وقُبَيل مفاوضات فض الاشتباك الأول أو المشهورة بمفاوضات الكيلو ١٠١، وآخرون يؤكِّدون أن البداية الحقيقية كانت في عصر عبد الناصر نفسه وأثناء حياته، وأن السادات سرًّا كان وطَّن نفسه على رفض السياسة الناصرية كلها وعلى رأسها التطبيق الاشتراكي في الداخل، والتحالف الاستراتيجي

مع السوفييت، والعداء الاستراتيجي مع أمريكا، والارتباط الكامل بعدم الانحياز، والإيمان المطلق بالقومية العربية سياسةً ثابتة للتحرر الوطني، وأهم من هذا وذاك إيمانٌ دفين أن النموذج الأمريكي في الحياة وفي السياسة هو أروع ما يمكن أن يعيشه الإنسان، السادات، ومصر إذا وليَ أمرَها السادات.

وأستطيع أنا شخصيًّا أن أُضيف باعتباري من أوائل الكتَّاب المصريين الذين عرفوا السادات وعرفهم السادات في أوائل الثورة عن قرب، بالنسبة لي بالتحديد التقيت به في جريدة الجمهورية أيام كان رئيس مجلس إدارتها، وأُعجب بي ككاتب إلى درجة أن عهد لي بكتابة عموده اليومي الذي كان يُشكِّل افتتاحية الجمهورية مُوقَّعًا باسمه ومكتوبًا بكليشيه بخط يده. أيامها كنا قد بدأنا نُغيِّر رأينا تمامًا في «الثورة»، وبعدما كنا قد اصطدمنا معها باعتبارها ديكتاتورية عسكرية جاءت لتصفية الحركة الوطنية المُتصاعدة ضد الإنجليز ولمصلحة الاستعمار الجديد؛ مما أدَّى إلى صدامٍ عنيف تمامًا مع الثورة، أُغلقت بسببه جريدة المصري العظيمة التي كنت أحد كتَّابها، وحدثت مظاهرات مارس، وكادت الحركة الوطنية تنجح في إقامة حياة دستورية نيابية حزبية، وإعادة الجيش إلى ثُكناته بتأليف وزارة خالد محيي الدين الشهيرة ورئاسة محمد نجيب الشديد الحماس للحكم بالنظام الديمقراطي الغربي. كادت تنجح لولا خطة عبد الناصر الشهيرة التي نفَّذها الصاوي، والمفاوضات التخديرية مع قيادات الإخوان والشيوعيين، والاتفاق على إشراكهم في الحكم ليؤيدوا استمرار الجيش والثورة، ثم ضربهم بعد هذا جميعًا ضرب غرائب الإبل، وضرِبنا؛ عدد من الكتَّاب الأحرار في ذلك الوقت معهم.

وأنا شخصيًّا قُبِض عليَّ في أغسطس ٥٤، وحُقِّق معي بتهمة تكوين جبهة وطنية مع الوفد مُمثَّلًا في الأستاذ أحمد أبو الفتح الذي كان قد هاجَر إلى لبنان، جبهة «لقلب نظام الحكم» بكل التهم المحفوظة لمثل هذا النوع من «الجرائم السياسية»، ولكن حين حُقِّق معي ولم يتمكَّنوا من ضبط الوثيقة الخطيرة التي كنت قد كتبت فيها بخط يدي خطةً ومشروعًا كاملًا لجبهة وطنية تُسقِط النظام العسكري آنذاك، لعدم توافر أو العثور على أدلة، أودعت المُعتقَل في القلعة وسجن مصر وليمان أبي زعبل و«الأردي»، ورحلت مع الإخوان إلى السجن الحربي، وعدت إلى سجن مصر.

ولكن تلك قصة أخرى ربما يجيء وقتٌ نحكيها؛ فلا مجال للفخر أو التفاخر بها، وأنا شخصيًّا لا أحترم كثيرًا أولئك الذين لم يعد لهم ثَمة عمل إلا أن يذكروا لك أيام المعتقَل ودولة الاستخبارات والتعذيب، مع أني والكل يعرف أن هؤلاء الجعجاعين، واحد منهم

عالي الصوت تمامًا في هذا المجال كل ما دفعه من ضريبة الحرية هو أربع وعشرون ساعةً قضاها بالقبض الخطأ في سجن الاستئناف الذي كان يُعتبر «هيلتون» السجون في ذلك الوقت.

بتأميم القناة وباندونج وصفقة السلاح ذات الطابع العسكري لحركة الجيش، اتخذت الثورة طريقها لقلب الشعب وقيادته وأُفرج عنا بالتالي، ورأينا التغير الهائل الذي حدث وغيَّرنا موقفنا، ووصلنا إلى حالة صلح، بل وجبهة متفِقة تمامًا وإلى حدٍّ التضحية بالروح مع الثورة. وحينذاك عرفت، كما قلت، السادات؛ ذلك العضو المعروف المهاب في مجلس قيادة الثورة، والثورة يومها فعلًا أصبحت ثورةً عظيمةً جليلة، ويفخر الإنسان بالانتماء مجرد الانتماء لها، فما بالك وهذا عضو في مجلس قيادتها المحدود وأحد أبطالها؟

ولكن … ولأن الحيِّز المتاح ضيِّق ولا مجال عندي للإطالة، ورغم أني ظَلِلت أعمل مع السادات حتى نقلني تمامًا من وزارة الصحة إلى المؤتمر الإسلامي لأتفرَّغ لكتابة ثلاثة كتب تحمل اسمه، واعتبرتها أنا مهمة وطنية عليا؛ إذ إن أحدها كان عن حرب السويس الوطنية والعُدوان الثلاثي، وقع في خمسمائة صفحة وتُرجِم ونُشر باسم أنور السادات في دار نشر هندية وزَّعته بالإنجليزية على العالم أجمع، بعد أن رفضت دار النشر البريطانية إدراجه في قائمة مطبوعاتها لأسبابٍ خاصة بدور بريطانيا وإيدن في مؤامرة السويس، رغم هذا ورغم انبهاري كشابٍّ بشخصية السادات التي كنت أُتابعها منذ اغتيال أمين عثمان، واغتيال عبد القادر طه الذي استقبلته كطبيبِ استقبال في قصر العيني مُصابًا بخمس رَصاصات من خلف وأمام قوَّضت بُنيانه المتين، واعترف لي قُبَيل وفاته وحين أعلمته أنه مقدم عليه أن شخصًا اسمه «علي حسنين» يعمل في الحرس الملكي الحديدي هو الذي استدرجه، وذكر أسماء مصطفى كمال صدقي وأنور السادات وطلب استدعاءهم، وجاء الأول، ولم أكن أعرف شيئًا عن الحرس الحديدي ولا دور يوسف رشاد، ونكوص عبد القادر طه عن الانضمام بتأثير أخيه أحمد طه الزعيم العمالي الذي كنت قد تعرَّفت به في لجنة الطلبة والعمال التي كنت مُنضمًّا لها. قصة طويلة طويلة، فتَّحت وعيي لأول مرة على دور الجيش في الحركة الوطنية الذي لم أكن أعرفه، وعن مؤامرات الملك ضد الضباط الوطنيين، وكما ترَون، فرغم اتساع الحركة الوطنية قبل الثورة وبعدها فمن الواضح أنه عالمٌ صغير، وإنني رغمًا عني وأنا في صدد الحكم على كامب ديفيد والسادات أن أجد نفسي وجيلي غارقين إلى آذاننا في قلب ثورة ٢٣ يوليو وما قبلها وما تمَّ بعدها وإلى الآن.

الموقف يخلق الشخصية، والشخصية تُشوِّه الموقف

وبالضبط مثلما وصل السادات كامب ديفيد وقد سلَّم جميع أوراقه — وكأنما هذا دأبه — فلقد وصل السادات إلى يوم ٢٣ يوليو وقد استنفد تمامًا كل طموحاته الثورية، ولم تعد تربطه بحركة الضباط الأحرار إلا صلته الشخصية بجمال عبد الناصر. كانت إعادته للجيش عن طريق يوسف رشاد قد ألقت ظلالًا كثيفة على ماهية موقفه وميوله، بحيث إن كثيرين اتهموه فعلًا أنه انضمَّ للحرس الحديدي وأصبح من رجال الملك بعد أن بدأ ثائرًا مُتمردًا على الرأي والأحزاب المُتهاونة.

وهو نفسه ذكر أن الثورة قامت وهو غائب في دار للسينما، ومعه «كعب» التذكرة التي من الممكن أن تصلح دليلًا على وجوده بعيدًا عن «المؤامرة» لو انكشفت الثورة وقُبِض على الجميع، بل إن البعض فسَّر أن عبد الناصر اختاره ليُلقي بيان الثورة الأول لكي يذرَّ الرماد في عين الملك ورجاله ويُطمئنهم إلى أن رجُلهم هناك، ومعظم الذين عرفوا أنور السادات في ذلك الوقت سمعوا منه قولته المشهورة: إن الثورة جاءته بعدما كفَّ عن الثورة، أو أصبح هدفه بعيدًا تمامًا عن مشاكل ومخاطر الثورة وحكم الثورة والسياسة كلها لو أمكن. وهكذا يُفسِّرون سبب بقائه مجرد البقاء بلا فاعلية في «الصورة»، حتى عيَّنه عبد الناصر نائبه وآل إليه الحكم؛ فلو كانت لديه ذرة طموح لدور غير دور المُتفرِّج لالتقطها عبد الناصر على الفور، ولأصبح مصيره كزكريا محيي الدين والبغدادي وغيرهما؛ النفي التام من الحياة السياسية.

وقد تبدو هذه المسألة لا محل لإيرادها بالتفصيل هنا، ولكن العكس هو الصحيح؛ فهذه النقطة تُمثِّل في رأيي حجر الزاوية في كل ما قام به السادات وما اتبعه من سياسات

بعد تولِّيه رئاسة الجمهورية؛ فهي لم تكن سياسات قائمة على مبادئ نابعة من إيمان وعقيدة ثابتَين لدى السادات، كانت كلها ومنذ اللحظة الأولى وسائل تُتيح للسادات كل مزايا ومغانم الحكم دون مشاكله ومغارمه؛ الاستراحات والأزياء والاستمتاع إلى أقصى الدرجات بأطايب الحياة وإرضاء نزواته جميعًا، وعلى رأسها ميوله التمثيلية والاستعراضية وكثرة ظهوره في التليفزيون المصري، ثم بعد هذا شاشات العالم وصفحات جرائده ومجلاته الأولى. وقد أدرك الغرب هذا كله، ولعب عليه بمهارةٍ مُذهِلة. إن الرغبة في الشهرة والظهور تدفع أناسًا من أمثال ذلك الشاب الذي حاول قتل ريجان إلى ارتكاب أبشع الجرائم فقط من أجل أن يطفو فوق سطح الدنيا، وتتداول الملايين اسمه؛ فإذا وصل تفريط السادات بمصير الشعب والبلاد إلى درجة الجريمة، فسوف يكون من أوائل دوافعها الوجود الإعلامي العالمي المُخلُّ بالعقول المحبة للظهور وللدعاوي ولو كانت كاذبة.

وصل السادات كامب ديفيد وقد أدرك، أو بمعنًى أدق جعلوه يُدرك، أن وجوده السياسي الرئاسي والزعامي قد ارتبط بمبادرة القدس بحيث لو فشلت لانتهى هو نفسه معها وفشل؛ فهي — هكذا أفهموه وغسلوا له عقله، وعزفوا على نقطة ضعفه تلك ببراعة إجرامية، وجعلوه يؤمن أنها قد تحوَّلت من محاولة حل أو خطوة قد تنجح وقد تفشل إلى الطريقة الوحيدة الأخيرة — ليس لحل مشكلة الشرق الأوسط أو استرداد سيناء أو الحل الشامل العادل للقضية، وإنما — هو الأهم تمامًا — إلى وضعٍ ارتبط به كل مصيره ومصير حكمه، بحيث لو فشلت فمن المحتَّم أن يفشل هو معها ويسقط. ولم تكن تلك هي المرة الأولى التي يلتحم مصيره هذا الالتحام الكامل بطريقة حل؛ فمنذ أن وُلي الرئاسة وهو يُحاول أن يفكَّ الاشتباك القائم بين بقائه في الحكم وخوض الحرب — أي حرب — بلا جدوى. وحين تأكَّد له، خلال الهبَّة الوطنية الرهيبة في أوائل عام ٧٢ أنه ما لم يُحارب فإنه سيسقط، بدأ لأول مرة يُجهِّز جديًّا للحرب، حرب الدفاع عن الحكم والذات أولًا، ويُحيطها بأقصى درجات الأمن والأمان له، فأي خطأ يعني النهاية، بحيث إن المُتأمِّل لسلوكه منذ نجاح الجيش المصري في عبور القناة والانتصارات الأولى، يجد أنه كان يفعل المستحيل ليتخلَّص وبأسرع ما يستطيع من حالة الحرب، وكأنه الطالب المرعوب من امتحان، ما إن يُجيب على السؤال الأول فيه حتى يبلغ به جنون الفرحة حد أن يقف يعلن للعالم أن الامتحان انتهى وأنه نجح، ويعلن لكيسنجر أنه راضٍ بأقل القليل مُقابل أن تُفرِج أمريكا وبالتالي إسرائيل عن مصيره المربوط بإحلال السلام، أي سلام وبأي كم أو كيف، وكأنها حربٌ نجح فيها بضربةِ حظٍّ لن تتكرَّر، وليس بأداء عظيم لقوات وطنية مُسلَّحة أذهلت ببسالتها العدوَّ والصديق.

وهكذا دخل الخيمة ١٠١، وكان عليه ليخرج منها بنتائج تتناسب مع حجم الانتصار المصري المنقوص والهزيمة الإسرائيلية غير الكاملة، كان عليه أن يعتمد على مؤتمر جنيف، وعلى إدخال الاتحاد السوفييتي كطرف، وعلى ربط سيناء بالقضية الفلسطينية، وعلى عودة لتلاحمٍ أقوى مع العرب، وهي كلها، كما هكذا رأى، مُعوِّقات تُعيقه عن الجري من حالة الحربِ بأقصى ما يستطيع ليُحافِظ على العصفورة الوحيدة التي وجدها في حوزته.

وهذه اللهفة المرعوبة نفسها هي التي دفعته لكي «يخلع» من السعودية وسوريا ومعظم الدولة العربية بحيث انقصم العمود الفقري للكائن العربي المُذهِل العملاق الذي تفتَّقت عنه الحرب، هي اللهفة التي التقطها — بذكاء الشياطين — كيسنجر حين جاء إلى المسرح الشرق أوسطي في أعقاب الحرب، وبلا مجهودٍ كبير أدرك سبب انتصار العرب في حرب العبور العسكري والبترولي المجيدة تلك، السبب كان ذلك التحالف الهائل الذي تم بين مصر والسعودية وسوريا، والذي به تشكَّل، ولأول مرة منذ نشأت القضية العربية، تشكل عملاق عربي حقيقي يملك الجند والطاقة والدم والدولار، تحالفًا غيَّر في أسابيع قليلة من خريطة المنطقة والعالم السياسية والاقتصادية، وبه تأكَّد وللمرة الأولى أيضًا رُجوح كفة العرب على كفة إسرائيل رغم أي مساعدة أمريكية أو غربية، ورغم أي تشرذم عربي قائم.

هكذا رأى الحاذق كيسنجر الموقف، وأيضًا رأى الحل، ولكسر العمود الفقري وجد السادات يُقدِّم له الطريقة بلا أي تحفُّظ. والطريقة هي خلع مصر أولًا من هذا التحالف، ثم خلعها من المعسكر العربي نفسه. وقد كان؛ فلقد بدأ يدقُّ إسفينًا رهيبًا بين مصر والسعودية ودول الخليج بأن ضخَّم للسادات انتقاداتهم المُرَّة لفض الاشتباك، مؤكدًا أنهم — السعودية والدول الأخرى — تريد أن تُفوِّت على مصر انتصارها، و«تُفرمل» الصعود الهائل لدور مصر القيادي الذي تنامى بسرعة بمجرد خوضها للحرب. ولقد ساعدت الخطة الكيسنجرية عوامل عربية، صوَّرها السادات على أنها رغبةٌ دفينة في إذلال مصر عن طريق صندوق الدعم الخليجي وشروطه، وعودة لقصة صندوق الدين الاستعماري على يد «العرب» هذه المرة. وأوقعوا بين سوريا ومصر عن طريق إذكاء التناحر والخلافات حول دور كلٍّ من مصر وسوريا في الحرب. باختصار واستغلالًا للهفة السادات وخوفه أن يطير عصفوره، خلعوا مصر من الجبهة وأدخلوها الخيمة، وهكذا اشتعلت حربٌ أخرى عربية-عربية أو عربية-مصرية، وبعد شهور قليلة لم يعد قائمًا من بقايا العمود الفقري إلا ذكرى لشيء يُثير الحلم، حدث وكان، وإلا نزاع حول حجم المعونات وذمة القائمين عليها.

ألا يبتلع السادات الطُّعم إلى آخره، طعم المفاوضات؟ أجل، في سنة ٧٣ اكتشف العرب أنه بالحد الأدنى من التنسيق يصبحون قوةً مُرعِبة، واكتشف أعداؤهم أيضًا الوسيلة لمنع هذا التحالف، وسيلة المفاوضات المباشرة الثنائية بين إسرائيل وكل طرف من أطراف القضية على حدة.

المفاوضات الثنائية التي تصبح فيها إسرائيل — باتفاقٍ تامٍّ مع أمريكا — اليد العليا، وتصبح الدولة العربية الداخلة فيها ليست الطرف الأضعف فقط، وإنما الطرف «الخائن» أيضًا، الطرف المرفوض المتعاون مع العدو الذي يجب أن نقف منه جميعًا موقف العداء، وهكذا دولة إثر دولة، وخيمة إثر خيمة، والإسماعيلية إثر قلعة ليدز، إثر خالدة إثر كريات شمونة، يتفكَّك الوجود العربي المُتكتِّل، ومن معسكرين؛ صمود وتصدٍّ في ناحية، ومُعتدلين حلفاء لأمريكا من ناحيةٍ أخرى، إلى صمود انقسم، وعراق عُيِّنت لها إيران مسئولة عن شلها وشل فاعليَّتها، ومُعتدلين سحبوا واحدة أو أكثر من الصمود، وأحداث لبنان تجيء لينتهي حفل الختام بالشعب العربي، وقد فقد تمامًا الثقة في التصدي والاعتدال، العقد انفرط ليبدأ الاكتشاف العظيم — المفاوضات المباشرة الثنائية لو أمكن — يأخذ دوره، حتى لتصبح منظمة التحرير بجلالة قدرها هي التي تنتظر دورها على باب الخيمة، المار بكامب ديفيد وكريات شمونة، المؤدي حتمًا، من يدري؟ ربما إلى اتهام المنظمة بالتهاون والتحالف مع العدو الإسرائيلي.

مقامرة المفلس

وجاءت كامب ديفيد، آخر قشَّة يتعلق بها السادات ليُنقذ المبادرة التي بادَر بها وبادرت هي به كي يدخل الكامب، ولم يعد في جعبته سهمٌ واحد يُناور به.

لم يكن هناك أمامه ليُغري إسرائيل بمفاوضته سوى التلويح بتنازلات أكثر، مثل التطبيع الكامل بين مصر وإسرائيل، واحتمال موافقة مصر على حل مشكلة الفلسطينيين حلًّا أحسن قليلًا من حل مشكلتهم كلاجئين، وعلى وعد بالقطيعة التامة مع العرب.

يعني دخل السادات كامب ديفيد — هكذا بمنتهى البساطة — ليُقدِّم تنازلات في مقابل الجلاء عن سيناء ونزع سلاحها، مقابل بلايين المعونات والأسلحة الأمريكية تتدفَّق على إسرائيل، وترفعها من دولة في عشرة أيام سُحِقت إلى دولة مستحيل أن تُهزم.

وهو طريق ذو اتجاهٍ واحد وحيد.

فقد ذكر السادات لمحمد إبراهيم كامل وهم في الطائرة المتجهة لكامب ديفيد: نحن لن نخسر شيئًا، إذا أعجبتنا الشروط ورضينا عن إطار السلام واتفقنا كان بها، وإن لم تعجبنا قطعنا المفاوضات وعُدنا، وقد بيَّنَّا للعالم وكسبنا رأيه العام بأن ذهبنا مع إسرائيل إلى آخر المدى، ولكن التعنُّت الإسرائيلي هو المسئول عن الفشل.

قال هذا.

ولكني — ومع الحقائق التي لا تقبل الشك — أشكُّ كثيرًا إن كان باستطاعة المُفاوِض المصري أن يحزم حقائبه ويرفض ويعود دون اتفاق.

السؤال هو: ماذا يتلو موقفًا كهذا؟

حلٌّ عسكري؟ نكتة مُضحِكة تمامًا هنا.

أم مزيد من التحايل على أمريكا ورجائها؟

ولكن أمريكا في كامب ديفيد موجودة، رئيسها وسياستها وأقصى ما تستطيعه هناك، ولا يوجد خارج كامب ديفيد أو بعدها أي أمل في استجابة أكثر، أو أي قدرة على ضغط أكثر.

أيكون البديل أن يعود السادات إلى القاهرة ويُعلن عن فشل جهوده السلمية، ويرى الدول العربية أنه أخطأ باللجوء إلى المبادرات والمفاوضات، وأنه مستعدٌّ للذهاب إلى أي عاصمة عربية والاعتذار عمَّا كان وبدر، وإبداء الاستعداد لعودة مُتكتلة جديدة تخضع لأقصى شروط دول التصدي والمواجهة تطرفًا؟

أيفعل السادات هذا باعتبار أنه البديل الوحيد في حالة فشل المفاوضات؟ بالطبع مُستحيل أن يعود هكذا ويتصور شماتة دمشق وطرابلس، ناهيك عن الجزائر واليمن، حتى تونس والمغرب، مُجرَّد تصور المشهد مستحيل، الانتحار ولو سياسيًّا أهون منه.

أبدًا، مستحيل.

بيجن قبل أي إنسان آخر كان يعرف أن دخول السادات كامب ديفيد معناه الواضح أنه، شاء أم أبى، قَبِل فعلًا ومسبقًا أيَّ شروط أو تحفظات تُلحُّ إسرائيل أو تُعاند في فرضها. إنه طريق الاتجاه الواحد الذي لا عودة معه ولا محيص.

المسائل ليست لعبة.

حتى لو كانت لعبة فأنت أيها الرئيس محمد أنور السادات تلعب مع أناس تدرَّبوا على اللعبة مئات السنين، وليس عمرهم في الملاعب عامَين مثلك.

ليس تعنُّت بيجن ولا مثالية كارتر، ولا شريك كامل أو غير كامل، هذه كلمات لا معنى لها بالمرة، منذ الكيلو ١٠١، أنت أخذت الحل الثنائي حلًّا تفضُّ به اشتباكًا مصريًّا إسرائيليًّا لتدخل في اشتباكٍ حادٍّ مصري-عربي، منذ مبادرة القدس وأنت مزَّقت كل أوراق لعبتك العربية، وما تبقَّى منه أهديته طائعًا مختارًا لكيسنجر وكارتر، بل منذها لم يعد لديك أية أوراق لعب بالمرَّة، وليس أمامك سوى أن «تسحب» وأنت مُغمِض العينين، وتسحب وأنت مُتأكد أنك تسحب أوراقًا قيمتها في انخفاضٍ مستمر، أو هي أوراق الذي ترك «العزومة» ومضى «يشحذ» ويقترض.

إن الحياة كالمآسي التراجيدية التي لا ترحم، والبطل في المأساة الإغريقية إذا اختار طريق الندامة يصبح مجنونًا لو تصوَّر للحظةٍ أن ضربة حظ مُفاجئة ممكن أن تُسفِر عن علامة أو ورقة أو درب سلامة، كالبطل التراجيدي ليس أمامك سوى أن — بقدمَيك — تظل تمضي في الطريق، حتى تنتهي إلى النهاية المحكومة والمعروفة سلفًا، ومنذ لحظات اختيارك الأولى.

كان ممكنًا أن يتراجع السادات بعد القدس مباشرة، وبالتحديد في اجتماع الإسماعيلية. كان ممكنًا أن يتراجع بعد مفاوضات ليدز في إنجلترا.

كان ممكنًا أن يتراجع وهو لا يزال يُفاوض ويتكلم مع الأمريكان، مع الوسيط. أما وقد قرَّرت أن تدخل مباشرةً معسكر نجمة داود، وتستدعي وزير الدفاع الإسرائيلي فايسمان لسالزبورج، وتلعب بورقة بيريز لتناور بيجن، وتصاعد من حملاتك على البلاد العربية إلى درجة تحترق معها كل كباريك معها، وتلعن الاتحاد السوفييتي وقادته، بل وحتى شعوبه بمثل ما لم يلعنه أحد من قبل أو من بعد، ويصبح الموقف بينك وبين منظمة التحرير صراع موت أو حياة.

حين يكون هذا كله قد حدث، فلا يعود باقيًّا ليس أن تُغلق حقائبك وتقطع، وإنما أن تُكمل الرواية ولم يبقَ على نهايتها إلا مشهد واحد، تعلن فيه أمام الناس ما قبلته فعلًا ووطَّنت نفسك عليه، وحتى الحل الشامل والقضية الفلسطينية يكفيها ورقة خطاب — أقصد ورقة توت — تنفصل عن المعاهدة، وتذكرها تحت بند البرنامج الإذاعي الشهير كي لا ننسى.

أجل، كامب ديفيد وقعت وتمَّت قبل أن يفتح أيٌّ من الأطراف الثلاثة فمه، فلم يكن أحد في حاجة لأن يفتح فمه؛ فالحقائق معروفة للأعمى، ولا يمكن لعاملٍ آخر، عامل الحقائق، أن يتدخَّل أو يُغيِّر من الأمر شيئًا.

ولهذا أنا أعجب أن المفاوضات استغرقت ثلاثة عشر يومًا، في ماذا؟ وفيمَ كان الخلاف؟ الخلاف حول مستعمرات سيناء كان خلافًا مسرحيًّا؛ فلو كان رأي بيجن والإسرائيليين أن ياميت وغيرها مبادئ غير قابلة للمساومة، لما تنازل عنها وفدهم وبعدها برلمانهم، ولما استغرقت المفاوضات ثلاثة عشر يومًا.

وحتى الخطابات المتبادلة بشأن مفاوضات الحكم الذاتي، لو كانت إسرائيل رحَّبت بتبادل تلك الخطابات فمعنى هذا أن يد مصر كانت ستظل طليقة فيما يختصُّ بهذه النقطة، وأيهما أصوب بالنسبة لإسرائيل؛ أن يُغلَّ رأي مصر وينحصر في دائرة مفاوضات من أجل الاستقلال الذاتي، أو أن يُترَك حرًّا باستطاعة مصر أن تُنادي وتُطالب بما هو أكثر.

في كامب ديفيد أخذت إسرائيل كل ما كان يمكنها أخذه.

وفيها أعطى السادات كل ما كان بإمكانه إعطاؤه.

كامب ديفيد التي يُهلِّل لها الساداتيون يقولون إننا بها حقَّقنا إجلاء الإسرائيليين عن سيناء، وهذا مكسبٌ ضخم باستطاعة أي مُحايد أن يؤكد لهم أن سيناء المنزوعة

السلاح، المبقاة رهينة تحت تهديد مدافع الجيش الإسرائيلي الملاصق في النقب، سيناء هكذا أحسن لإسرائيل ألف مرة من سيناء جرح وطني دام يؤجج لدى المصريين قضية تحرير لا يعلم سوى الله آثار تأجُّجها وما يمكن أن يؤدي إليه، سيناء عبء مالي ومسطحات أرض بلا جيش حدود يحرسها، وفاصل جغرافي يجعل من أي تهديد مصري للجبهة الجنوبية للإسرائيليين وهمًا وأكاذيب وأضغاث أحلام.

أنا لا أُقلِّل من شأن استرداد سيناء.

ولكني أفتح عيون الغافلين الذين يقولون إننا استرددناها بالسلام. إننا استرددناها على هيئة حرب. إن حرب ٧٣ هي التي حرَّرت سيناء، أو على وجه الدقَّة البطولة المُذهِلة في حرب ٧٣ رغم طعنة السادات للبطولة من الخلف. سيناء لم تُحرِّرها مبادرة القدس أبدًا، وأيضًا لا بد أن أُنبِّه إلى حقيقة نكون ساذجين لو تغافلنا عنها، حقيقة أن سيناء بهذا الوضع تُشكِّل الحُلم الذي طالما راوَد إسرائيل أن تصبح سيناء عليه، منزوعة السلاح في معظمها، حافلة بمحطات الإنذار المُبكِّر ضد أي تحرُّك مصري، لا تُنفِق عليها إسرائيل مليمًا، وإنما تُوفِّر على نفسها مصاريف الإدارة والصيانة والدفاع العسكري لمنشآت إنذارية مجانيَّة تعمل لخدمة العسكرية الإسرائيلية فقط، ولا تستفيد منها مصر أية معلومات عن الوضع العسكري الإسرائيلي في الجانب الإسرائيلي، بينما هي تكشف تمامًا موقعنا العسكري حتى في غرب القناة والدلتا، وتُزوِّد الجانب الإسرائيلي بحركة كل عربة أو طائرة أو طلقة مدفع.

خسرنا كل شيء وكسبوا كل شيء

كانت مصر هي الخاسرة، حتى قبل دخول المفاوضات، في كامب ديفيد خسرنا ما حقَّقناه بالعبور والحرب ولم نكسب السلام، بدليل أن الرئيس حسني مبارك ذكر بنفسه أنه خلال مجزرة لبنان واستعدادًا لها حشدت إسرائيل سبع عشرة فرقة من جيشها على حدودنا.

بربِّكم أيها المالئون الدنيا ضجيجًا وفرحة بتحقيق السلام وانتهاء الحرب، وتوفير الصرف على الجيش، يا هؤلاء أيُّ سلامٍ هذا الذي يمكن أن نُحسَّه أو نتصرَّف على أساسه ونحن مُهدَّدون لدى أي حركة في المشرق العربي ولدى أي اضطراب يحدث، ولا يكون لمصر أبدًا يد فيه؛ مُهدَّدون بالآلة العسكرية الإسرائيلية تنتشر على حدودنا الشرقية وتُكشِّر عن أنيابها؟ ومن يدري؟ ربما في المرة القادمة تنقضُّ وتضرب. ألا يترتب على هذا أننا لا بد رغم معاهدة «السلام» وفكرة السلام، وحكاية آخر الحروب، لا بد أن نُبقي على جيوشنا كاملةً ومُسلَّحة ومستعدَّة لنحمي بها «السلام» المزعوم؛ أم نُفرِّط ونُفرِّق جيشنا ونُصفِّيه تجاه دولة ما تكاد فيها سماء المنطقة تتعكَّر حتى تُوجِّه لنا الآلاف المؤلَّفة من فوَّهات مدافعها وطائراتها وصواريخها وبنادقها؟

أي سلام هذا الذي حصلنا عليه بمعاهدة السلام؟

إننا في الحقيقة لم نحظَ إلا بكلمة نظرية محضة اسمها السلام، علينا طول الوقت أن نُدافع عنه وعن أرضنا وعن احتمال العُدوان علينا، ونُدافع عنه ونحن «مُكتَّفون» بسيناء المنزوعة السلاح وبمعاهدة كامب ديفيد. ومُضحِك فعلًا أن نُعطي الإسرائيليين في كامب ديفيد — فوق ترسانة سلاحهم — سلاحًا أضخم هو سلاحُ غلِّ يدنا وتقييد حركتنا حتى على أرضنا في الدلتا والوادي؛ فما أخذناه إذَن في كامب ديفيد ليس السلام، وإنما أخذنا مقلب أن نُسالم نحن بينما هم يتسلَّحون ويحشدون بكامل ومطلق حريتهم، وننزع نحن

سلاحنا بأيدينا عن سيناء، وننزع بأجهزة الإنذار المبكر السِّرية المفروضة أن نتكتَّم بها أمور دفاعنا الشرعي عن أنفسنا، بالسلام المزعوم حرَّرنا يد إسرائيل تُعربد في المنطقة وعلى حدودنا، وغللنا يدنا حتى عن أن تُدافع عن سلامنا وأرضنا داخل البيت المصري نفسه. بكامب ديفيد إذَن أعطينا إسرائيل منحة تفرُّغ كامل تُصفِّي فيه الموقف العسكري والسياسي في المشرق العربي كما يحلو لها.

وفي نفس الوقت خسرنا نحن الموقف هناك وعادينا دُوله.

وما لم تستطِع إسرائيل تحقيقه في جبهة القتال عام ٧٣، حقَّقته بسلاح المفاوضات والطابور الخامس الكائن في الـ ٩٩ ورقةً الرابحة في يد أمريكا.

وماذا كان يمكننا عمله غير هذا؛ غير كامب ديفيد؟!

والإجابة ببساطة هي لا شيء أبدًا، لم يكن مطلوبًا أن نعمل شيئًا بالمرة؛ فإذا كانت الطريقة الوحيدة لأن نعمل هي أن نعمل ضد أنفُسنا ومصالحنا فليذهب العمل إلى الجحيم، ولنأخذ نفس الموقف الذي تقفه الأردن أو السعودية ما دام الطريق السلمي إلى تحرير سيناء يعني أن نُحرِّر جزءًا من الأرض لنُكبِّل الجزء الأكبر من إرادتنا وحريتنا وحركتنا؛ فمعاهدة كامب ديفيد بمثل ما حرَّرت إسرائيل من التهديد المصري، كبَّلتنا نحن بالتهديد الإسرائيلي الذي لا نستطيع الرد عليه بتهديد مُماثل أو حتى الشكوى منه؛ فقبل كامب ديفيد كنا مُقيَّدين رغمًا عنا، ومعنى هذا أن حقَّنا الواضح كان أن نُحاوِل ونُناضل لكسر هذا القيد الإجباري، بينما بعد كامب ديفيد نحن أصبحنا مُقيَّدين «بإرادتنا» وبتوقيعنا.

ويا له من فارق ضخم!

إسرائيليًّا وعربيًّا ودوليًّا كسبت إسرائيل في كامب ديفيد.

مصريًّا وعربيًّا وأيضًا دوليًّا خسرنا نحن.

أمريكيًّا … نعم أمريكيًّا كان النجاح الساحق فعلًا.

فكامب ديفيد اتفاقٌ تطوُّعي بين بيجن والسادات لتقديم المنطقة وكل نتائج حرب ٧٣ والقوة الذاتية العربية هديةً للولايات المتحدة على طبق من الفضة. بحرب ٧٣ ارتفع البترول وانخفض الدولار، وبثورة إيران تدنَّت القوة الأمريكية إلى نصف مواقعها عالميًّا.

وبكامب ديفيد ارتفع الدولار وانخفضت قدرة الأوبك، ووصل الضعف العربي إلى مستوًى لم يكن يحلم به أعدى أعداء العرب.

واقتصاديًّا تضاعفت ديوننا الخارجية.

وشُلَّ الوجود العسكري المصري تمامًا، ولم يعد ثَمة وجود عسكري إلا لإسرائيل كي تُدمر، والقوى المُتعددة الجنسيات بقيادة البنتاجون لتُحيل العربدة الهوجاء إلى وجودٍ إسرائيلي أمريكي مُنظَّم.

وما نفعل حتى بما يُسمَّى التدريبات المشتركة لقوة الانتشار السريع والنجم الساطع، لا يسطع سوى نجمنا نحن إذا هوى وتدنَّى، وأصبح عليه لكي يأخذ السلاح أن يدفع الثمن تبعية للاستراتيجية الأمريكية «للدفاع»، بالأصح تأكيد السيطرة على المنطقة العربية وثرواتها.

تراجيديا السياسة

يعتمد الفن المسرحي، أو بمعنًى آخر الدراما، على قاعدة أنَّ نوع الشخصية يخلق نوع الموقف الذي تُعاني منه، وأيضًا يستطيع الموقف أن يخلق ويوجد الشخصية المُلائمة له.

الموقف بدأ بهزيمة ٦٧؛ لأن عبد الناصر كان هناك؛ فمع الهزيمة بدأت المقاومة وحرب الاستنزاف وإعادة تكوين القوات المسلحة، تلك التي تُوِّجت في النهاية بحرب وانتصار ٧٣.

ولكن لأن الذي قاد ٦٧ كان عبد الحكيم عامر، وكان مؤكَّدًا أن تؤدي طريقته والمُسيطرين على القوات المسلحة من أصدقائه إلى الهزيمة النكراء.

والذي قاد الجيش من ٦٧ إلى ٧٠ كان عبد الناصر؛ فقد كان مُحتَّمًا أن يُحارب الجيش ويبني نفسه إلى أن يصل إلى ذروة قوته في عام ٧٣، بل حتى قبلها بكثير، ولكن لأن الذي قاد في ٧٣ كان الرجل الذي دخل الحرب ليُحافظ على حكمه ودولته، إلى درجة أن الانتصار المبدئي قوَّض طموحه وأصبح، وهو المنتصر، أحرص الناس على إنهاء الحرب الدفاعية بأي ثمن.

وهكذا وبهذه الروح نفسها قاد عملية السلام، روح غير المؤمن بأهمية وحجم وكُنه انتصاره الذي نحَّى قوته الذاتية جانبًا، وراح يستمدُّ القوة من خضوعه التام للولايات المتحدة، الشريك الكامل، ليس في عملية السلام، وإنما، وهذا هو الأهم، في عملية الضمان الأكيد لبقاء ودعم نظام السادات والدفاع عنه ضد ويلات الحرب وزوابع السلام.[١] رجل كل

---

[١] والدليل الذي تكشَّف أخيرًا جدًّا واضح الدلالة؛ فقد كان من أوائل ما طلبه السادات من كيسنجر في أول لقاء معه حرسٌ أمريكي شخصي للسادات، مع أن العلاقات المصرية الأمريكية الرسمية لم تكن قد عادت؛ ومعنى هذا ببساطة أنه من لحظتها قرَّر أن يرتمي تمامًا في حضن أمريكا وإسرائيل، وأن يعهد إليهما بحمايته من شعبه باعتبار أنه سيقوم من الآن فصاعدًا بأعمال ضد هذا الشعب.

حُلمه أن يحظى برضاء قوة أعظم، وليس كما فعل عبد الناصر أن يستخدم القوة العظمى وسلاحها لتدعيم قوته هو الذاتية، بحيث حين يُحقِّق المكاسب والنتائج لا يُحقِّقها منحة أو نتيجة لتوسُّلاته، وإنما يُحقِّقها بإرادته وأَنَفته وذراعه.

الشخصية تخلق الموقف، والموقف يخلق الشخصية.

وثورة ٥٢ خلقت جمال عبد الناصر خلقًا ليعود يقودها، ولو لم تكن ثورة، ولو كانت إصلاحًا أو حركة استقلال لخلقت محمد نجيب أو غيره.

ورغم الهزائم التي مُنِي بها عبد الناصر عسكريًّا، فقد كانت هزائم عسكرية فقط، ونتائجها دائمًا كانت قوة للثورة.

في الخرطوم عقب الهزيمة كان العرب أقوى ألف مرة من موقفهم عام ٥٦ عقب انتصار، وحتى في موقفهم عام ٧٣ بعد الأسابيع الأولى من الانتصار، وحين بدأت شخصية السادات تتدخَّل لتخلق من الموقف المُنتصِر موقفًا مرعوبًا مُنقسِمًا مُهدَّدًا بضعف قادم أكثر.

ولو كان شخص آخر غير السادات لتغيَّرت نتيجة الحرب.

ولو كان شخص آخر غيره دخل معركة السلام لاختلفت النتيجة أيضًا.

وهكذا كان من المستحيل على الرجل الذي أعلن بيان ثورة يوليو وفي جيبه تذكرة السينما، يُثبِت بها أنه لم يَثُر ولم يشترك، كان من المستحيل على رجل كهذا إلا أن يدخل حرب ٧٣ حين تولَّى؛ خوفًا من التذمر الشعبي الهائل نتيجة لحالة اللاسلم واللاحرب.

خوفًا من المصير وعوامل أخرى ستكشف عنها الأيام حتمًا، دخل الحرب.

وخوفًا على المصير أنهاها وبسرعة البرق.

وللإبقاء على بقايا البقايا من نتائج الحرب، وبإرادة خائفة ملهوفة، دخل خيمة السلام أو بالأصح سردابه.

وماذا تنتظر من خائف يتلمَّس طريقه في ظلام سرداب السلام إلا أن يتخبَّط؟ ومع كل خطوة يتنازل خوفًا من عفاريت الظلام، وانعدام ثقة كامل في الشعب الذي به حارَب وبه انتصر، واعتمادًا على الممسك بيده من كيسنجر إلى كارتر وليس اعتمادًا أبدًا على نور الواقع والحقيقة الذي يملأ الدنيا، نور الإيمان بالقضية والشعب، ذلك النور الذي أطفأه في نفسه حين قَبِل العودة للجيش بثمن أن يكون مع الملك ضد القضية وضد الجيش.

رجل كهذا لا بد إذا تمكَّن وحكم، وصوَّر الأمر لنفسه على أنه حارَب، وأنه عليه مثلما كان إله الحرب، أن يُمثِّل دور ملاك السلام، مُمثِّل مُهرِّج، الاستراحات اشتكت من نوبات

راحته حتى قُتِل وهو يُدبِّر لأيامٍ قادمة يقضيها مُسترخيًا في وادي الراحة، يستريح وكأن جهده في ارتداء البدلة البروسي العسكرية الفاخرة وجلوسه الساعات يُراقِب «جيشه» في زهو طالب الكلية العسكرية المُراهق لدى خروجه من الكلية بلبس الفسحة.

رجل جاءته ثورة، لم يعمل عملًا واحدًا من أجل تنظيمها، وجاءته الثورة بحكم لم يكن يحلم أن يصبح أحد دعاماته، وحين وجد في الحكم خطورة ومسئولية العمل السياسي ركنَ نفسه بنفسه حتى جاءته الرئاسة من حيث لا يعلم ولا يدري، واصطدم بأناس كانوا أخيَب المتآمرين عليه؛ فقد بادروا واستقالوا وسلَّموا أسلحتهم قبل المعركة، وحين جرَّب أن يُراوِغ الشعب وعقد معاهدة مع الروس لم يكن يعلم لها معنًى، وأخذ الشعب المعركة جدًّا، وخيَّره بين الحرب أو السقوط، غمَّى عينَيه وحارَب، وبجيش عبد الناصر وفوزي انتصر. محظوظًا انتصر، مثلما محظوظًا حكم، ومحظوظًا أصبح غلاف التايمز والنيوزويك والدير شبيجل، والوجه الدائم في أي تليفزيون غربي، هو الذي أرسل صورة له — وهو ضابط — يطلب عملًا كمُمثِّل. محظوظًا أجلسه كيسنجر كما يقول فوق حجره، ورعته وكالات الأنباء الصهيونية وأرضعته ما لم يحلم به من لبن المجد والشهرة، وجعلت له في الخافقَين مجد أباطرة إيران، ويونيفورم كيتل وروميل، وشوارب أعظم من شوارب هتلر، وأنواع من الملابس جعلته من العشرة المختارين للأناقة والرشاقة. رجل كان يُمضي بين أيدي مُدلِّكه الخاص أكثر بكثير مما يُمضيه في أي اجتماعات سياسية، حتى إنه اصطحب ذلك المُدلِّك إلى كامب ديفيد، وكان وقته مع المُدلِّك أضعاف أضعاف وقته مع الوفد المصري أو حتى مع الوفود الأخرى. رجل في نفس الوقت الذي كان يُنادي بنفسه زعيمًا لثورة وتنظيم الضباط الأحرار ضد الملك، كان أروع من مائة ملك وخديوي يحيا، في الوقت الذي يجهر بسيادة القانون يخرق القانون، ابتداءً من إنجاح ابنه إلى دكتوراه زوجته إلى توفيق وعثمان وعصمت وعائلة كبيرة فعلًا، ولكنها عائلة غيلان تنطلق في كل اتجاه تغشُّ وتسرق وتقتل وتضرب وتنهب، وكبيرها بنفس الدف واللكمة يضرب، وبقسوة عصمت على رشاد يخنق أي مُعارض، ومن أقصى الأقباط إلى أقصى المسلمين ومن أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، ومن فتحي رضوان ذي السبعين إلى عمر التلمساني المقترب من الثمانين إلى شباب المسلمين في الثامنة عشرة يخنق ويسجن ويضرب، وبأفحش الألفاظ ينهال علنًا وأمام العالم سبًّا على الناس جميعًا من برجنيف إلى الخميني، ومن القذافي إلى الأمراء والملوك. رجل لم يُنادِ أحدًا بكلمة الصديق إلا مُعلمه كيسنجر، ويُسمِّي رجلًا وطنيًّا مسلمًا فاضلًا كعمر التلمساني بـ «الكلب»، بينما يُسمِّي المُجرم بيجن بأخيه وصديقه الوفي. رجل من المال العام يزهو بأن

يبني قريته ويُزوِّد بيوتها بالماء الساخن، وفي نفس الوقت يعيب على هيكل أنه يستخدم في منزله ذلك الماء وأنه يفطر في رمضان. رجل أطارت ضربات الحظ المتتالية التي صادفته منذ أن قامت الثورة حكم الإنسان السوي فيه على الأمور، وأطلقت العنان للسفه.

أجل، يفعل هذا كله، ويفعل هذا كله أمام الناس أجمعين؛ بمعنى أن كل ما ذكرته آنفًا جرى أمام الدنيا والعالم وليس في حجراتٍ مُغلِقة. ألا نفترض إذَن أن يكون ما جرى في الحجرات المُغلَقة هو أدهى وأمرَّ؟ وإذا كان هذا هو الجزء الذي ظهر لنا، أو بالأصح أظهره هو لنا، فيا لهول ذلك الجزء الخفي الذي — إلى الآن — لم يظهر، وتصرفات هذه شأنها تمتدُّ من التصرفات اليومية إلى تصرفاتٍ مسرحها العالم والدنيا عليها شاهدة، تصرفات أعطت النور الأخضر لطبقة بأكملها من المُجرِمين واللصوص وقطَّاع الطُّرق أن يُصيبها الصرع، وتمضي تنهش وتلهف وتُسجِّل ثروات فلكية في أعوام، بل في شهور، بحيث يمتلك ابنٌ واحد لعصمت، واحد من الخمسة عشر ابنًا والخمس زوجات، ٥٩ مليون جنيه أسهُمًا، وملايين الجنيهات والدولارات سائلة، وتليفونات وعربات وقصور. كيف يتسنَّى لشقيق رئيس جمهورية في عالم اليوم أن يمتلك مالًا وعقارات تُساوي إلى الآن مائة وثلاثين مليونًا من الجنيهات، في زمن لم يتجاوز الخمس سنوات، وبادئة من حضيض الحضيض؟! وكل ما يفعله الشقيق الرئيس من عقاب أن «يمنع» أخاه وأبناءه من «دخول» الميناء، ويثبت أن هذا المنع كان لخوفه على حياتهم وليس زجرًا لهم أو إظهارًا لعين أو نظرة حمراء مانعة.

وهل نفصل سرقة مجوهرات أو قصور أو اغتيال أرض دير وضرب شريك بالرصاص وسكوت كبير العائلة؟ هل يمكن فصل هذا عن الجرائم على النطاق القومي؟

وهل الذي يُبيح للفاسدين أموال الدولة والشعب يتعفَّف أن يبيع حقوق بلاده كلها مُقابل جائزة لنوبل، أو صورة على غلاف، أو مزارع في كاليفورنيا؟

الخيانة مرتبةٌ أعلى

إذا أخذنا خطًّا أفقيًّا وجعلناه مِقياسنا، وأطلقنا منه خطوطًا كشعاعات الشمس بحيث تُغطي المائة والثمانين درجةً التي تُشكِّل زاوية الخط الأفقي، وإذا رسمنا منحنًى لتصرفات السادات بدءًا من ميلاده حتى مَصرعه، وضمَّنَّاه كل ما كان يُقدِم عليه من تصرفات تبدأ من غرفة نومه الخاصة إلى أكبر منابر العالم وأوسعها حيث شهودها بالملايين، فإننا سنلمح قاسمًا مشتركًا واحدًا بين هذه التصرفات جميعها؛ ذلك هو: الانعدام التام لمراجعة يقوم بها الضمير أو وقفة لتبين موضع القدم، أو — في النهاية — أي انتباه أو اهتمام بما قد يقوله الناس عن صاحب ذلك التصرف أو قائل ذلك القول أو الأخذ بذلك الموقف.

وإذا لم ينهَ الإنسان نفسه بنفسه، أو لم ينهَه ضميره، أو زوجه، أو صديقه، أو جاره، وإذا لم يهتم هو حتى لو كان الناهي أقرب المُقرَّبين؛ فما هي القوة التي ستمنع ذلك المُخطئ أن يرتكب ذلك الخطأ؟ ومن يقف حائلًا بين صاحب ذلك الوجه المكشوف الذي لا يهمُّه أحد، وبين الإقدام على فعل أي شيء أو قول أي شيء أو اتخاذ أي موقف؟

إن الضمير والتعقُّل والآخرين هي الوسائل التي منحها الله سبحانه لعباده ليُقيِّموا بها أنفُسهم ويُقيِّموا أفعالهم ويحكموا بها على أنفسهم وعلى الآخرين.

فإذا انعدمت تلك تمامًا، فماذا يمنع المخطئ أن يُخطئ، والمسيء أن يُسيء، والشريف حتى أن يسرق، والمواطن أن يُفرِّط أو يخون؟

خوف الله سبحانه. قد يقول قائل: ولكن الخوف من الله لا يتأتَّى إلا لمالك لضمير أو لعقل أو لمُشيرٍ أمين؛ فإذا انتفى هذا كله لم يعد بين ذلك الشخص وبين القيام بأحطِّ الأعمال حائل.

ولهذا، فالمانع الوحيد الذي كان يحول بين الرجل وبين العمل الخبيث هو عامل واحد ليس هناك غيره؛ الخوف، الخوف الجشع على النفس والذات والثروة والسلطات، الخوف أن

يؤدي هذا العمل إلى الخطر على النفس أو الحياة. وسدًّا لهذه الثغرة اتخذ السادات لنفسه واحدًا من أكفأ أجهزة الحراسة الخاصة، دُرِّب تدريبًا شاقًّا ودقيقًا في الولايات المتحدة، بل كان فيه بعض الأمريكيين المُكلَّفين بأدوار أخطر من أن يُعهَد بها لغيرهم.

ومُحتميًا بهذا الخندق البشري راح السادات من مَكمنه ومأمنه يُطلِق النار والتصرفات والأخطاء في كل اتجاه.

وفي مكمنه هذا ومأمنه يعبد الله إذا عبده عن خوف، ويُقنع نفسه أنه ما دامت العلاقة بينه وبين الله عامرة، فلا يهمُّ أبدًا كيف وإلى أي مدًى تكون علاقته بالناس.

ونسي أن علاقة العبد بالله سبحانه ليست علاقةً خاصة، إنما هي علاقة تعمر أو تخرب بكمٍّ ونوع علاقة الإنسان ببني الإنسان من حوله، بحيث حين يظلمهم، هم عبيد الله، تنتفي علاقته السوية بالله، ويُحاسبه الله دنيا وآخرة حساب الظالم.

وقد حاسَب الله السادات حساب الظالم.

وقبل يوم الساعة حلَّت ساعته، وأفتح الجرائد كلها وأقرأ ما تزدحم به المحاكم وألسنة الناس وصفحات الكُتاب من صورٍ مُروِّعة لحقبة السادات وأفعاله؛ كتاب يكفي لإدخال صانعيه ولو كانوا بالملايين إلى سراديب جهنم، فما بالك وهذا كله من تدبير وصنع نفس بشرية واحدة رَكِبها الشيطان.

كان حريًّا بظروف كظروف العرب ومصر قبل ٧٣ أن تخلق — لو تركت الظروف والمواقف وحدها — قائدًا جديرًا بالمرحلة جدارة المرحلة به.

ولكن المسائل لم تتمَّ بالتلقاء وبقانون الانتخاب الطبيعي والبقاء للأصلح. كان من حظنا التعس أن تتجمَّع الوساوس على عبد الناصر بحيث تُحتِّم عليه أن يختار أقل زملائه ورفاق ٢٣ يوليو قدرة على قيادة الحقبة التالية؛ خوفًا من أن يختار الرجل القوي المناسب فتُسوِّل له نفسه — للخليفة المختار — أن ينقلب على قائد الثورة.

ولهذا اختار نائبًا له إنسانًا لا يمكن أن يرضى به أحد رئيسًا.

اختار المُهرِّج ليترحَّم الناس على جديته هو، الساذج ليترحَّم الناس على حِذقه، المحبَّ للظهور ليترحَّم الناس على تواضعه وتقشُّفه أقل الناس إيمانًا بالمساواة والاشتراكية ليترحَّم الناس على القائد الشعبي الاشتراكي.

والقاعدة الذهبية أن الحاكم الضعيف يصبح أكثر الطغاة رعونة وخوفًا من الرجال الأقوياء والشعب القوي، وحتى الرأي الحصيف.

وجاء هذا الاختيار الذي مهَّدت له أطرافٌ عربية وأوعزت به الاستخبارات الأمريكية عن طريق مُستشاريها، الذين كان يحتلُّ بعضهم أمكنةً قريبة جدًّا من صانع القرار، عبد الناصر، جاء هذا الاختيار بردًا وسلامًا على الغرب بزعامة أمريكا.

ولعلمهم بمدى قلة شعبيته وهوان شأنه، تولَّوا حقنه بفيتامينات التأييد والوعود، وربما التلويح أنه حتى لو دخل الحرب فلن يخسرها.

وكان عند ظنهم.

ففي أقل من أربع سنوات كان اتجاه مصر الثوري قد صُفِّي تمامًا لمصلحة أمريكا، ومن معاداة الاستعمار إلى التسليم الكامل بالتبعية له.

وعجَّلت الحرب بعجلة التحويل.

وما كادت تنتهي حتى كانت البقية الباقية من آثار الثورة قد التهمها الانفتاح، وأتت عليها القروض، ونهبها اللصوص.

وحتى كانت إسرائيل قد تحوَّلت من ألدِّ الأعداء إلى الشريكة في المفاوضات والسلام المُتهافت المُستسلم.

والأشقاء والحلفاء العرب قد أصبحوا ألدَّ الأعداء.

والقطاع العام، ابن الثورة البكر، أصبح ابن الحرام المنبوذ.

والطهارة الثورية وقد توارت خجلًا من زحف الدنس والرشوة والدعارة.

وأفقنا جميعًا لنجد مصر قد دحرجها السادات وعصابته إلى مُستنقَع «مجاري»، لا مكان لرجل نظيف أو عمل نظيف أو تصرُّفٍ سويٍّ فيه.

وما كانت كامب ديفيد، وما جرى منذ مبادرة التهامي والسادات ومفاوضات ديان، تهامي في الغرب، وكيسنجر والسادات في أسوان، وغيرهم وغيرهم، إلا الامتداد الطبيعي لسياسةٍ اقتصادية، حرب على الشعب، وسياسة حرب على كل ما يمتُّ إلى الوطن ومبادئه. وبنفس أساليب عصابة النهب والحكم وسمسرة التليفونات والأوتوبيسات واللحوم الفاسدة والمخدرات، قنع القائمون عليها بفتات موائد بيجن وبن أليسار وفايسمان وشامير وبورج.

وعلى مائدة تضم السفَّاحين في ناحية، ومُجرمي الحرب والمشاركين في صنع هزيمة الثغرة من ناحية، والطامعين في فلسطين والعرب من ناحية، والمسلمين بكل ما يستر العورات أمام المصريين والعرب من ناحية، اجتمع اللصُّ والطابور الخامس والمستعدُّ لبيع أهله ليظفر بالكرسي.

اجتمعوا — هكذا قالوا — ليتفاوضوا.

وقبل أن يبحث إنسان عن كُنه مفاوضات وجدية مفاوضات، فإن نظرةً واحدة لماهية المُتفاوِضين كافية — دون أي شيء آخر — لإدراك النتائج.

نتائج لا ترقى حتى لمستوى الخيانة.

فالخيانة دائمًا بمقابل يحصل عليه الخائن من الطرف الآخر؛ فإذا كان إطلاق سراح أيدي الطرف الآخر لينهب بلده ويُدمِّر حلفاءه ومعسكره؛ أي يُضيف من عنده لمكاسب الجانب الآخر، فإننا أمام نوع من الخيانة لم يحدث من بيتان أو سينجمان ري، أو أي عميل يُفاوض حتى أولئك الذين صنعوا منه عميلًا.

ولأن هذا قد حدث، وتمَّت بالدخول في سراديب كامب ديفيد أغرب وأعجب مفاوضات حدثت في التاريخ، فقد كان رد الشعب على ما حدث هو أيضًا أغرب وأعجب رد لشعب على مُفاوِض.

وحادث المِنصَّة سيبقى دائمًا من عجائب التاريخ السبع؛ لأن ما سبقه وأدَّى إليه سيبقى دائمًا مثلًا للتفريط في حقوق أي شعب، عجيبة هو الآخر، فريدة بين ما يحفل به التاريخ من عجائب.

وهو حادثٌ جرى حتى قبل أن تعرف أو تُحلِّل كل التفاصيل، أو يرفع الغطاء عن كل مُستنقَعات الخيانة.

فما بالك حين يحدث في القريب العاجل هذا؟

ويردُّ على كل مُناصِر لكامب ديفيد التي كانت، وكل كامب ديفيد في طريقها للحدوث، وكل المرحلة الكامب ديفيدية المقبلة، يردُّ عليها بإفحام لا يقلُّ عما حدث في ٦ أكتوبر عام ١٩٨١م.

أيها المُتشدِّقون المُحاولون خداع التاريخ والناس، لا أقول لكم العاقلُ من اتَّعظ.

فالإجهاز على المُذنِبين في محاكمة لم تستغرق دقائق وشاملة بالنفاذ لم يَعظكم.

وعليكم — كلما جاءت لكامب ديفيد سيرة — أن تُبادروا بحفر خنادق عميقة الغور.

وآه لو علمتم أنها مهما غارت بكم وغُوِّرتم في أعماقها فإن يد العدالة ستُطبِق عليكم.

ليس فقط لكامب ديفيد.

وإنما لأبشع جريمة ارتُكبت في حق شعبنا على مدى تاريخه.

جريمة تجريده من ثورته، وحقوقه، واشتراكيَّته، وسلاحه، وأشقَّائه، وتاريخه، وتركه عريانًا يرتجف بين الذئاب.

استعِدُّوا.

خاتمة

بدأت سؤالي بموقف السادات، وهل كان خيانة أم تفريطًا لحد أقصى درجات الخيانة.

وها نحن ذا نصل سويًّا لأن نُدرِك أن ليس السادات وحده وإنما كل من ارتكز بوجوده على وجود السادات، وزيَّن بمعسول كلامه وصمت شيطانه الأخرس طريق الموافقة والانزلاق.

ويا لكارثة الهول حين تصبح الخيانة مرتبةً أعلى مما كان وما جرى من وقائع عشر سنوات من حكم مصر، ستُكلِّف شعبنا مائة عام لإصلاح ما عن عمد وسبق إصرار وترصُّد خرَّبته.

ذلك لأننا لن نُصلِّح فقط أخطاءً أو نُحاكِم جرائم ومُجرِمين، وإنما لا بد أن نُغيِّر «عصرًا» بأكمله لعصرٍ آخر؛ فبالأمس حين كان الاستعمار لا يزال في مراحله العسكرية البدائية الأولى، كنا نعرف أننا انتقلنا من عصرٍ كنَّا فيه مُستقلِّين إلى عصرٍ أصبحنا فيه مُحتلين، كنا نعرف هذا برؤيتنا لجنود ومواقع ومعسكرات جيش الاحتلال.

أما ما حدث لنا خلال السنوات العشرة الماضية، وانتقالنا إلى العصر الذي نحن فيه الآن، فليس هناك دليل على الهاوية التي نحن فيها يُمكننا أن نلمسه أو نراه رأيَ العين، وما حدث ويحدث في لبنان الآن ممكن أن تُطمَس معالمه، وقد طُمست أو بدأ طمسها بلجنة كاهان وخروج إسرائيل «ديمقراطية» تمامًا من مذبحة لم يجرؤ هولاكو أو هتلر على القيام بمثلها، ومشكلة لبنان الوطن لها ألف حل في الظاهر، وكذلك الكِيان الفلسطيني المرتبط مع الأردن، أو بالأصح، المقيد مع الأردن في قيد لا يعرف فيه أحد مَن المسجون ومن السجَّان، ومصر مقاطعة عربيًّا، وقد تزول المقاطعة. باختصار، كل «آثار العُدوان» الظاهرية ممكن أن تُزال.

ويا للكارثة حين تزول؛ ذلك أنها سوف تزول من أمام الأعيُن فقط، أما في الحقيقة فإن تمكُّن مَن أسميناهم الأعداء في مستهلِّ هذا البحث، تمكُّنهم منا سيصل إلى النخاع، وهناك ألف سادات جاهز، وألف كامب ديفيد مطروحة. وأكاد لولا الحياء أن أقول إننا في واقع أمرنا في حالة «انفتاح» كامل أمام الشريك الكامل والجار الكامل وكل كامل، ومنفتحون وسوف ننفتح أكثر دون أن ندري، والأصابع تعبث بنا دون أن ندري.

أوَحَسِبتم أن الانهيار في سوق الكويت من صنعِ الصدفة، أو أن الحرب الإيرانية العراقية نفسها تحدَّدت في لحظة مزاجية إرادية من هذا الطرف أو ذاك، أو أن نهايتها لا تبدو في الأفق لأنها مستحيلة النهاية؛ أم إن هذه الحرب نفسها لها أوثق العلاقات بانهيار سوق المال في الكويت، وأوثق العلاقات بانهيار أسعار البترول، وغرق الأوابك في الأوبك؟

ليس ما ألقيناه سوى خيط ضوء واحد على أصبع رهيبة واحدة، اندكَّت في صدورنا وخرجت من ظهرنا ولكن جسدنا كله مُخترَق، والخناجر تعمل فيه من كل اتجاه.

ولا نستطيع أن نصرخ ونقول: النجدة.

فلمن نقول؟

لن ينجدنا أحد — في هذا العالم المُخيف — إلا أنفُسنا كعرب.

فنحن غريقٌ يستغيث بغريق.

فهل يستطيع غريق أن ينجد غريقًا؟

نعم يستطيع.

واستطاعته تبدأ بأن يُدرك — حتى لو كان واقفًا على ما يتصوَّر أنه الشاطئ — أنه هو الآخر غريق يغرق.

أقول ربما لو أدركنا، أول ما نُدرك، أننا كلنا نغرق، وأن لا أحد، حتى صاحب الملايين المُودَعة في مصارف سويسرا أو أمريكا، أو العقار في الريفييرا، لا أحد حتى هؤلاء «الأغنياء» الذين يتصورون أنهم أغنياء، بينما ثرواتهم كلها في قبضة من باستطاعته أن يحرمهم منها بقرار، مجرد قرار.

أم تقولون مستحيل؛ فقوانين تلك البلاد لا تسمح؛ نفس البلاد التي جمَّدت بقوانينها أموال إيران وقبلها مصر.

لا قوانين أيها السادة الغَرقى.

هو قانونٌ واحد فقط، قانون البحر العاصف الذي لا يرحم.

وهكذا لو أدركنا أننا كلنا — مرةً أخرى كلنا — غرقى ونغرق أو حتمًا سنغرق، إذا بقينا على هذا الحال، ربما، مرةً أخرى أقول ربما، لو أدركنا هذا أمكننا لو تشابكت أيدينا،

مُجرَّد تتشابك أيدينا، أن نصنع بأجسادنا المتحدة كتلةً تطفو، وحتمًا تطفو إذا تشابكت، فسيعمل حينذاك قانون العلم وليس قانون العاصفة والبحر الأعوج.

العلم الذي يقول: كلما كبر الحجم زادت القدرة على الطفو.

فلنكبر حجمًا لنعيش.

فلنتشابك لنكبر حجمًا.

فلنكفَّ أن نستغيث؛ فالمُغيث هو نحن أيضًا.

يا مُغيث أغِثنا.


هنـــداوي